السياسة الصليبية الإسبانية تجاه بلاد المغرب بُعَيد سقوط غرناطة (1492-1504 م/ 897-910 هـ) *

د. عامر أحمد قبج **

* تاريخ التسليم: 6/ 1/ 2015م، تاريخ القبول: 30/ 3/ 2015م.
** أستاذ مساعد/ قسم التاريخ/ كلية العلوم الإنسانية/ جامعة النجاح الوطنية/ نابلس/ فلسطين.

ملخص:

مثّلت السياسة الإسبانية تجاه بلاد المغرب الإسلامي حلقة مهمة من حلقات الحروب الصليبية المتأخرة، ورغم عودة جذور الأطماع الإسبانية في بلاد المغرب إلى عهود مبكرة من تاريخ الصراع الإسلامي المسيحي؛ إلا أنها قويت بعد ضعف الدولة الموحدية وانهيارها في كل من الأندلس والمغرب منذ القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري.

وبلغت السياسة العدائية ذروتها؛ عندما تمكّن الإسبان من إنهاء الحكم الإسلامي في الأندلس بُعَيد سقوط غرناطة؛ آخر المعاقل الإسلامية عام 1492م، وحينها أصبح الطريق ممهّداً لنقل الصراع إلى بلاد المغرب، برعاية بابوية، وبتوجيه وتنفيذ مباشر من المؤسسة الدينية والسياسية الإسبانية على حد سواء، لتحقيق أهداف استعمارية، وتنصيرية، وسياسية، واقتصادية، فسيطر الإسبان على بلدتي مليلة وغساسة، واتخذوا منهما موطئ قدم للسيطرة على باقي المناطق الساحلية، فمثلت السيطرة عليهما باكورة الإنجازات الاستعمارية الإسبانية في بلاد المغرب خلال القرن السادس عشر.

Crusader Spanish Policy Towards Al- Maghreb After the Fall of Granada from 1492- 1504 A. D. (897- 910 AH)

Abstract:

The Spanish policy towards Islamic Maghreb countries represented an important series of the Christian- Muslim conflict in the structure of the ancient Crusades Wars. The Spanish root- goals in the Maghreb countries refer to the early eras of that history of the conflict, but their echoes were soon carried out on the ground after the weakness and collapse of the Almohad State in Al- Andalus and Maghreb countries at beginning of the 13th A. D.

The aggressive policy reached its climax when the Spaniards eliminated the Islamic rule in Al- Andalus after the collapse of Granada in 1492 A. D. Thus, the way became so easy to shift the conflict to the Maghreb countries under the auspices of the papacy and direct supervision of the Spanish religious and political establishments to control the Maghreb countries and to evangelize its people. The colonialists had other political and economic ambitions, and so they controlled the two towns of Melilla and Ghasasa, which formed the climax of the Spanish colonial achievements in the Maghreb countries, and used them as a foothold to launch and control the rest of the coastal areas during the 16th century.

توطئة:

درج كثير من المؤلفات التاريخية المختصة بالصليبيات على استثناء الحروب التي شنّها الإسبان ضد المسلمين في الأندلس والمغرب من دائرة اهتماماتها، وبات مفهوم «الحروب الصليبية» مرتبطاً بوجه حصري بالفعاليات العسكرية الأوروبية الغربية ضد بلاد الشرق الأدنى الإسلامي، خلال الفترة الواقعة من 1095م/ 488هـ وحتى 1291م/ 690هـ، رغم افتقار ذلك للمصداقية التاريخية، لأن الحروب الصليبية بعد التاريخ الأخير انتقلت من طور إلى آخر، والدليل على ذلك؛ الحملات الصليبية الأوروبية التي شُنّت بعده ضد بلاد المشرق والمغرب على حدّ سواء، وما الحروب الإسبانية– البابوية ضد مسلمي الأندلس، إلا حلقة من حلقات الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين، وهذا ما ينطبق على الاستهداف الصليبي الإسباني لبلاد المغرب، ابتداءً من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، مروراً بالمرحلة التي أعقبت سقوط غرناطة، وانتهاءً بالحملات الإسبانية ضد مدن بلاد المغرب طوال معظم عقود القرن السادس عشر، فشكلت الجبهة الإفريقية الشمالية مسرحاً نشطاً لقوى العدوان الإسبانية برعاية بابوية؛ لاعتبارات تاريخية وجغرافية ودينية، وعلى الرغم من أهمية هذه الجبهة وحيويتها في تاريخ الحركة الصليبية؛ إلا أنها لم تلق الاهتمام الكافي من جانب المؤرخين والدارسين.

ومن هذا المنطلق وقع الاختيار على موضوع هذا البحث، والموسوم بـ «السياسة الصليبية الإسبانية تجاه بلاد المغرب بعيد سقوط غرناطة 1492 – 1504م/ 897 – 910هـ، والمقصود به: دراسة خلفيات الاستهداف الصليبي الإسباني ودوافعه وملابساته لبلاد المغرب الإسلامي، منذ سقوط غرناطة وحتى السيطرة الإسبانية على بلدتي مليلة وغساسة الواقعتين شمال شرق بلاد المغرب الأقصى.

وتكمن أهمية دراسة هذه الفترة التاريخية؛ بتمثيلها لإحدى أهم حلقات تاريخ الصليبيات المتأخرة في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، والتي شكلت القاعدة الرئيسة للمراحل الاستعمارية اللاحقة، مما أدى إلى نجاح الإسبان في السيطرة على معظم أراضي بلاد المغرب الشمالية.

ومما يميز أحداث تلك الفترة؛ ازدياد النزعة الصليبية الإسبانية تجاه مسلمي الأندلس والمغرب على حد سواء، وبخاصّة بُعَيد سقوط غرناطة، فكانت هذه النزعة بمثابة الرافعة والمحرك الأساس لرحى السياسة الاستعمارية الإسبانية تجاه بلاد المغرب بخاصة، جنباً إلى جنب مع العوامل والدوافع الأخرى، كالعوامل السياسية والاقتصادية والانتقامية،

والدفاعية في وجه حركة الجهاد البحري الإسلامي انطلاقاً من موانئ بلاد المغرب، وللحيلولة دون عودة المنفيين الأندلسيين ثانية إلى بلادهم، ومنع النجدات المغربية من تقديم يد العون لمن بقي منهم في بلاد الأندلس.

وارتبطت النزعة الاستعمارية الإسبانية تجاه بلاد المغرب بمدى التقدم الذي كانت تحرزه الممالك المسيحية على الجبهة الأندلسية، فكلما امتد النفوذ الإسباني نحو الجنوب؛ تعززت القناعة لدى المؤسسة السياسية والدينية بضرورة استهداف مدن بلاد المغرب، والسيطرة على أراضيه.

وإذا كانت بذور عمليات الاستهداف الإسبانية قد زرعت على خلفية الضعف الذي ألم ببلاد المغرب بسبب هزيمة الدولة الموحدية [1] في معركة العقاب [2] عام1212م/ 609هـ؛ إلا أنها بدأت تؤتي أكلها ابتداءً من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، حيث كان لهذه الهزيمة أثرٌ كبيرٌ في توجيه دفّة الصراع الإسباني نحو بلاد المغرب، من خلال تجريد الحملة تلو الأخرى ضد مدنه الساحلية، بعد أن كانت تلك البلاد مهابة الجانب تحت حكم الموحدين.

ومن أهم هذه الحملات؛ تلك التي جرّدها بيدرو الثالث (م1285 -1276) Pedro III ملك أراغون، في حزيران1282م/ ربيع أول681هـ ضد مدينة القالة [3]، وتكونت من مائة وخمسين سفينة، حملت على متنها خمسة عشر ألف جندي، وذلك بدعم من البابا مارتينو الرابع (م1285 -1281) Martino IV، مما أدى إلى احتلال المدينة وإحراقها، بعد أن هرب سكانها إلى الجبال، ثم ما لبثت القوات المعتدية أن رحلت عنها في الثالث من آب/ السابع والعشرين من ربيع الآخر من العام نفسه [4].

كما تعرضت جزيرة جَربة [5] عام1284م/ 683هـ لهجوم أراغوني عنيف، مما أدى إلى احتلالها، وحرق بيوتها، وقتل الآلاف من أهلها وأسرهم، واستمر احتلالها عاماً كاملاً، بنى الأراغونيون خلاله قلعة اتُّخذت فيما بعد قصبة للحكم [6]، وفي عام1289م/ 688هـ جرد الملك الأراغوني الفونسو الثالث /م1291 -1285) Alfonso III 690 –684هـ) جيشاً ضد مدينة طرابلس [7]، ولكنه لم يستطع السيطرة عليها، فعرج على مدينة المهدية [8] وقام بنهبها [9].

ونظراً لاستئثار الأراغونيين بهذه الحملات، فقد حرصت مملكة قشتالة على مزاحمتهم؛ بهدف إيجاد موطئ قدم لها على السواحل الإفريقية الشمالية؛ ففي عام1251م/ 649هـ غزا ملك قشتالة فرناندو الثالث (م1252 -1217) Fernando III مدينة سبتة [10]، ولكنه أخفق في السيطرة عليها [11].

وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني1291م/ السادس من ذي الحجة690هـ وقع ملك قشتالة سانشو الرابع (م1295 -1257) Sancho IV وملك أراغون خايمي الثاني (م1327 -1291) Jaime II معاهدة في مدينة مونتيجودو Monteagudo الواقعة شمال شرق إسبانيا، ونصت على ضرورة بذل الجهود المشتركة للسيطرة على بلاد المغرب، بقيام القشتاليين باحتلال الأراضي الواقعة إلى الغرب من نهر ملوية [12] ، وقيام الأراغونيين باحتلال الأراضي الواقعة إلى الشرق منه، ومن ثم العمل على ضمها إلى مملكة هسبانيا Hispania، وفق التقليد الروماني القديم [13] .

واستمراراً للسياسة الإسبانية المعادية، فقد تواصلت الهجمات ضد المدن الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري، ففي عام 1354م/ 755هـ سيطر الملك الأراغوني بيدرو الرابع (م1387 -1336) Pedro IV على مدينة طرابلس، بمساعدة إيطالية وجنوية، فنُهبت المدينة وقُتل وأُسر كثير من سكانها، ودامت السيطرة المسيحية عليها خمسة شهور [14] .

وعادت الحملات المسيحية لتستهدف جزيرة جربة من جديد، ففي عام1377م/ 779هـ قام الصقليون والجنويون بتجريد حملة عسكرية ضدّها، مما أدى إلى احتلالها وإلحاقها بصقلية التي كانت حينذاك تتبع التاج الأراغوني، وفي عام1399م/ 801هـ فشل الإسبان في احتلال مدينة عنابة [15] ؛ نتيجة الدفاع المستميت الذي أبداه أهلها [16] ، وفي العام نفسه احتلوا مدينة تطوان [17] ، واستمروا فيها حتى عام1401م/ 803هـ بعد تخريبها وقتل معظم سكانها وأسرهم، وفي عام1424م/ 827هـ جرد الإسبان حملة عسكرية ضد جزائر قرقنة [18] ، مما أدى إلى احتلالها بعد قتل المئات من سكانها وأسرهم، ولكنهم ما لبثوا أن انسحبوا منها بعد مدة وجيزة [19] .

وفي عام1432م/ 835هـ قاد ملك أراغون الفونسو (م1458 -1416) Alfonso V بنفسه حملة عسكرية ضد جزيرة جربة، وفرض عليها حصاراً لمدة سبعة وعشرين يوماً، إلا أنه فشل في السيطرة عليها [20] ، ومن المرجح أن تكون هذه الحملة آخر الحملات التي قام بها الإسبان ضد مدن بلاد المغرب خلال القرن الخامس عشر، لانشغالهم بأزماتهم الداخلية، وبالسعي لاستكمال السيطرة على المدن الأندلسية.

يلاحظ مما سبق بأن معاهدة مونتيجودو قد وقعت في العام ذاته الذي انتهى فيه عصر الحروب الصليبية ضد بلاد المشرق الإسلامي، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الحروب الصليبية لم تتوقف، وإنما تبدلت الأزمان والأماكن، وبأن الفكر الصليبي لم يغادر أذهان الساسة، والمفكرين، ورجال الدين الأوروبيين، الذين ظلوا يعملون بجدّ من

أجل استئنافها، وهذا ما أكد عليه مؤرخو العصور الوسطى في كتاباتهم؛ ومن ذلك الحملات الصليبية التي قامت في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري، وعلى رأسها حملة ملك قبرص اللاتيني بييترو دي لوزجنانو (م1369 -1359) Pietro di Lusignano ضد مدينة الإسكندرية بمصر عام1365م/ 766هـ، بالإضافة إلى الحملة الأوروبية ضد الأملاك العثمانية في بلاد المجر، والتي عرفت بحملة نيقوبوليس Crusade of Nicopolis عام1396م/ 766هـ [21] ، وترافق ذلك مع عدد من المشاريع الصليبية التي طرحها عدد من الشخصيات الدينية والسياسية في أوروبا منذ نهاية القرن الثالث عشر، وحتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، مما أسهم في دعم التوجهات التوسعية الإسبانية [22] .

ويتضح بأن الحملات التي قامت بها مملكة أراغون ضد بلاد المغرب الإسلامي تعكس الاهتمامات المتوسطية لهذه المملكة، وذلك على النقيض من مملكة قشتالة التي انشغل ملوكها على الدوام بأوضاعهم الداخلية وبمحاربة الأندلسيين، ورغم محاولاتهم مزاحمة الأراغونيين في لعب دور ما على الساحة المتوسطية كما اتضح من خلال معاهدة مونتيجودو، إلا أن القشتاليين لم يتمكنوا من القيام بأي دور على هذا الصعيد حتى النصف الأخير من القرن الخامس عشر.

ومن ناحية أخرى لوحظ أن جميع الهجمات الأراغونية قد استهدفت المدن والجزر الواقعة في بلاد المغرب الأدنى والأوسط، ما عدا تلك التي استهدفت مدينتي سبتة وتطوان في بلاد المغرب الأقصى، مما يدفعنا للاعتقاد أنه بالإضافة إلى النزعة الاستعمارية والتوسعية والدينية الصليبية التي تميزت بها مملكة أراغون، فقد كانت تهدف من وراء تجريد تلك الحملات إلى حماية ممتلكاتها في كل من جزيرة صقلية ومدينة نابولي، وتأمين خطوط التجارة منها وإليها، وكذلك تجنيبها الأخطار الناتجة عن الغارات الإسلامية التي كانت تهدد أمنها.

أسباب ودوافع ومقدمات الأطماع الإسبانية في بلاد المغرب:

♦ **أهمية الموقع الجغرافي**: شكل موقع بلاد المغرب وغنى أراضيه بمختلف الثروات والموارد الاقتصادية، حافزاً كبيراً لدى الإسبان للسيطرة عليه، والانطلاق منه من أجل ضم مزيد من الأراضي لممالكهم.

والمقصود ببلاد المغرب؛ الأراضي الواقعة من إقليم برقة [23] شرقاً حتى سواحل الأطلسي غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً حتى الصحراء الكبرى جنوباً [24] ، وشكلت هذه المنطقة برأي الكثيرين وحدة مستقلة عن باقي أجزاء القارة الإفريقية، مما جعل بعضهم يطلقون عليها اسم «إفريقيا الصغرى»، وذلك لسهولة الانتقال ما بين أقاليمها وأقطارها،

نظراً للعوامل الجغرافية المشتركة فيما بينها، هذا بالإضافة إلى العوامل الوحدوية الأخرى كالدين واللغة، والتجانس القبلي المشترك [25].

وتقسم بلاد المغرب إلى ثلاثة أقاليم طبيعية، أولها الإقليم الساحلي الخصب الممتد على ساحل المتوسط والأطلسي، وعلى الرغم من قلة عرضه بصفة عامة وبروز الكتل الصخرية على شواطئه، إلا أن السهول الساحلية الشرقية تتميز باتساعها النسبي، حيث يتراوح عرضها ما بين ثلاثة عشر إلى خمسين ميلاً، ويتخلل السهل الساحلي مجموعة من الخلجان والسبخات [26].

أما الإقليم الثاني؛ فهو إقليم التل أو الأطلس الصغير والكبير، وتمتد فيه سلسلتا جبال أطلس بشكل أفقي ومُحاذٍ للساحل، وتتدرجان في الانحدار من الغرب إلى الشرق حتى تنتهيا في البلاد التونسية، وتنبع منهما بعض الأنهار مخترقة السهل الساحلي لتصب في البحر، وأخيراً الإقليم بالصحراوي، حيث الصحراء الكبرى [27].

ودرجت المصادر التاريخية والجغرافية الإسلامية على تقسيم بلاد المغرب إلى ثلاثة أقاليم؛ المغرب الأدنى الذي يعد أول الأقاليم من الناحية الشرقية، ويمتد من برقة حتى مدينة بَجاية [28] ، ويسمى في كتب العرب والرومان بأَفريقيَّة [29] ، ويتميز عن غيره بسهوله الواسعة الخصبة، وموقعه المتوسط، وقربه من أوروبا الجنوبية، وبخاصة جزيرة صقلية الإيطالية، التي لا تبعد عن سواحله سوى ما يقرب من ثمانين ميلاً، فكان هذا الإقليم بمثابة القلب بالنسبة للشطر الغربي من العالم الإسلامي، لذلك ليس من قبيل الصدفة أن يشكل الهدف الرئيس للهجمات الصليبية الأوروبية طوال عدة قرون [30].

ويتمثل الإقليم الثاني بالمغرب الأوسط، الذي يمتد من مدينة بجاية شرقاً حتى نهر ملوية غرباً، ويتميز هو الآخر بأهميته من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية لكثرة موانئه، ورواج تجارته [31] ، أما الإقليم الثالث فيتمثل بالمغرب الأقصى، الذي تمتد أراضيه ما بين نهر ملوية شرقاً وساحل الأطلسي غرباً [32].

وبصفة عامة، فقد تميزت بلاد المغرب بكثرة ثرواتها الزراعية، لخصوبة أراضيها وبخاصة الساحلية منها، وكذلك غناها بالثروة الحيوانية؛ مما أدى إلى رواج صناعة الجلود والصوف، وخصوصاً بسبب احتكارها لأغنام المارينو التي تميزت أصوافها بجودتها العالية، وتزايد الطلب الأوروبي عليها [33].

ومما زاد من الأهمية الاقتصادية لبلاد المغرب وقوع سواحلها وكثير من مدنها على خطوط التجارة، وبخاصة تلك القادمة من بلاد السودان [34] ، حيث الذهب، والعاج، وريش النعام، والعبيد، ومنها إلى موانئ دول أوروبا الجنوبية، علاوة على اشتمالها على

طرق تجارية أخرى من الشرق إلى الغرب وبالعكس، ولعب تجارها دور الوسيط في التجارة العالمية ما بين دول الشرق والشرق الأقصى والدول الأوروبية، التي كانت تعتمد على موانئ المغرب في الحصول على ما يلزمها من مواد تجارية، مما أدى إلى ازدهار اقتصادها، فتفوقت في هذا المجال على كثير من الدول الأوروبية والمدن التجارية، وبخاصة الإيطالية منها، وهذا ما جعلها محط اهتمام الدوائر الاقتصادية والسياسية الأوروبية على الدوام [35].

♦ **ضعف بلاد المغرب خلال القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري**: أدى ضعف الدولة الموحدية خلال القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري إلى بروز ظاهرة العصيان القبلي وتمرد الولاة، مما أدى بدوره إلى قيام ثلاثة كيانات سياسية وجغرافية على أنقاضها، ففي بلاد المغرب الأدنى (إفريقية) قامت الدولة الحفصية (1229 – 1574م/ 626 – 982هـ) [36]، وفي بلاد المغرب الأوسط قامت الدولة الزيانية (1235 – 1554م/ 633 – 961هـ) [37]، أما في بلاد المغرب الأقصى فقامت الدولة المرينية (1269 – 1465م/ 668 – 869هـ) [38]، وعلى الرغم من بعض مظاهر الازدهار التي شهدتها هذه الممالك خلال المراحل الأولى من عمرها، إلا أن أوضاعها ما لبثت أن ساءت خلال القرن الخامس عشر الميلادي.

ففي بلاد المغرب الأدنى حاول السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (1435 – 1488م/ 839 – 893هـ) المحافظة على وحدة مملكته وقوتها؛ فاهتم بالنواحي العمرانية والحضارية؛ كبناء المدارس والمكتبات والمساجد والزوايا الدينية والأسبلة [39]، ولكنه اضطر لمواجهة حركات التمرد التي قامت بها بعض القبائل العربية والبربرية في نواحي الجزائر [40] وطرابلس خلال الفترة الواقعة بين عامي1449م/ 853هـ و 1463م/ 867هـ [41]، ولما عجز عن ذلك اضطر إلى استرضائها بالأموال [42]، ولعبت الخلافات الداخلية الحفصية دوراً كبيراً في تشجيع زعماء القبائل على التدخل لصالح هذا الطرف أو ذاك [43].

وخلال عهد أبي عمرو عثمان، ثار الأمير أبو الحسن بن أبي فارس عبد العزيز (ت1452م/ 856هـ)، وسيطر على مدينة بجاية وخلع بيعة السلطان، ثم حاصر مدينة تونس، إلى أن تمكن السلطان من إخماد ثورته عام1452م/ 856هـ، مما أدى إلى استنزاف كثير من موارد الدولة [44].

وخلال فترة حكم السلطان الحفصي أبي زكرياء يحيى بن المسعود (1488 – 1494م/ 893 – 899هـ) ازدادت أحوال البلاد التونسية سوءاً؛ حيث عمت الثورات

وحركات التمرد أرجاء البلاد، وتقلصت أملاك الدولة الحفصية، مما أدخلها في حالة من الضعف والفوضى، ومما زاد الطين بِلّة؛ حلول وباء الطاعون عام 1494م/ 899هـ، وفيه توفي السلطان الحفصي نفسه [45].

وأما الدولة الزيانية في بلاد المغرب الأوسط، فقد تعرضت للأطماع الحفصية؛ وكان الملك الزياني أبو العباس أحمد ابن أبي حمو، المعروف بالعاقل (1430 – 1462م/ 834 – 866هـ) ، قد تولى الحكم بمساعدة الملك أبي فارس عبدالعزيز الحفصي (1394 – 1434م/ 796 – 837هـ) [46] ، ورغم محاولات العاقل المتكررة للاستقلال بالحكم؛ إلا أن العاقل انشغل طيلة فترة حكمه بمقاومة الأطماع الحفصية، وتعرض لعدد من القلاقل الداخلية، مما أدى إلى انفصال وهران [47] والجزائر وملیانة [48] وتَنَس [49] عن الدولة عام1448م/ 852هـ [50].

وثار عليه الأمير أبو عبد الله محمد المتوكل الزياني (1462 – 1485م/ 866 – 890هـ) عام 1462م/ 866هـ، فاستولى على مستغانم [51] ووهران وتلمسان [52] ، وعندما علم الملك الحفصي أبو عمرو عثمان بذلك زحف بجيشه وحاصر تلمسان، فأصبحت تتبع الحفصيين [53].

ونكث المتوكل الزياني بوعوده للحفصيين عام 1464م/ 868هـ، ورغم السفارات التي تبادلها الطرفان من أجل رأب الصدع؛ إلا أنها لم تحقق نتائج ملموسة [54] ، مما أدى إلى لجوء أبي عمرو عثمان عام 1466م/ 870هـ للسيطرة على مدينة المنصورة [55] ، ثم تقدم نحو تلمسان وهدم أسوارها مما أدى إلى استسلام المتوكل الزياني للحفصيين، والموافقة على الدعوة لهم، فبقي على ذلك حتى وفاته عام 1485م/ 890هـ [56].

وفي عهد السلطان الزياني أبي عبدالله الثابتي (1485 – 1505م/ 890 – 910هـ) ، شهدت البلاد الزيانية حالة من التقهقر والانهيار بسبب استمرار الثورات الداخلية، مما أدى إلى تقسيم الدولة الزيانية إلى مناطق نفوذ متعددة [57].

وفي بلاد المغرب الأقصى المرينية، لم تكن الأوضاع أحسن حالاً، وبخاصة في نهايات عصر بني مرين؛ فخلال عهد آخر سلاطينهم عبدالحق بن أبي سعيد المريني (1420 – 1465م/ 823 – 869هـ) ، ضعفت الدولة، وتقاذفتها ألاعيب الحجّاب والوزراء، ولعل من أهم هؤلاء يحيى بن زيان الوطاسي، الذي قُتل غدراً على يد الأعراب عام 852هـ/ 1448م، ومنهم أيضاً الوزير يحيى بن يحيى الوطاسي، الذي ساءت أوضاع الدولة كثيراً في عهده؛ بسبب ظلمه وتآمره مع الوطاسيين في مدينة أصيلا [58] للانقلاب على الدولة، ولهذا قام السلطان المريني عام 866هـ/ 1461م بإعمال القتل في الوطاسيين، وممن

قُتلوا؛ الوزير يحيى بن يحيى، ثم ازدادت الدولة ضعفاً عندما تقلد اليهود وزارتها، فاستغل الإسبان هذه الأوضاع وهاجموا طنجة [59] عام 869هـ/ 1465م، فأسهم كل ذلك في تأجيج مشاعر الناس، وثار أهالي مدينة فاس [60]، وقتلوا السلطان عبدالحق، فانتهت بذلك الدولة المرينية [61].

انتقل الحكم في بلاد المغرب الأقصى للوطاسيين [62] بزعامة أبي زكرياء محمد الشيخ المهدي الوطاسي (1472 – 1505م/ 876 – 911هـ)، الذي انشغل بتوطيد أركان حكم دولته، وبخاصة بسبب نشوب بعض الثورات الداخلية، التي استغلها البرتغاليون، فسيطروا على عدد من المواقع على سواحل بلاد المغرب الأقصى الأطلسية [63].

وفي الوقت الذي كانت فيه بلاد المغرب الأقصى في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري تعيش بدايات عهدها تحت حكم الوطاسيين، كان المغربان الأدنى والأوسط يشهدان حالة من الضعف والتفكك السياسي؛ حيث أصبحا خليطاً من الوحدات السياسية الصغيرة، التي يصعب تحديد حدودها ومعالمها الجغرافية والسياسية بشكل دقيق، وتحول عدد من المدن الساحلية كطرابلس، وجربة، وبجاية، والجزائر، ووهران، وشرشال [64] إلى مناطق نفوذ مستقلة، واستغلت القبائل البدوية هذه الحالة، فقامت بالسيطرة على المناطق الواقعة بين هذه المدن، ولم يعد لملوك بني حفص، وبني زيان سوى حواضرهم والأحواز المحيطة بها [65].

أدت أوضاع بلاد المغرب آنفة الذكر إلى غياب الاستقرار والأمن، فكان من مظاهر ذلك؛ انتشار العصابات على الطرق، ووقوع المدن ودروب القوافل التجارية تحت رحمة القبائل البدوية، فكثيراً ما كانت القوافل التجارية تضطر للاحتماء بالموظفين الرسميين المكلفين بجمع الضرائب، مما أدى إلى تقهقر التجارة والصناعات والحرف [66]، أما على الصعيد الفكري والثقافي؛ فما كاد ينتهي القرن الخامس عشر الميلادي حتى أقفرت البلاد من علمائها، وبخاصة مدينة القيروان [67]، ونضبت حركة التأليف، وانتشرت التكايا والزوايا التي عجّت بالمتصوّفة والمشعوذين، وحظيت برعاية الحكام أنفسهم [68]، ونظراً لكل ذلك، قيل بأن بلاد المغرب باتت تقدم نفسها بنفسها للمستعمرين الغرباء [69].

♦ **الوحدة الإسبانية وسقوط غرناطة**: تعددت الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وانشغلت كل واحدة بتوسيع نفوذها على حساب الأخرى، وما أن حل القرن الثالث عشر حتى أصبحت تلك الممالك ثلاثاً؛ وهي أراغون Aragon وقشتالة Castilla والبرتغال Portugal، فانشغلت الأخيرة ببناء استقلالها الذاتي، في حين بدأت المملكتان الإسبانيتان تعملان من أجل تحقيق الوحدة، والعمل المشترك لإنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس [70].

ورغم ذلك فإنهما لم تنعما بالأمن والاستقرار الداخلي، بسبب سعي كل مملكة للاستحواذ على مزيد من النفوذ الجغرافي والسياسي على حساب الأخرى، وكذلك التدخل المتبادل في الشؤون الداخلية، وبخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تداخل الأنساب والزيجات السياسية، وتمازج الدم بين أمراء الأُسر الحاكمة، مما جعل من الصعب في كثير من المراحل على أي من الأطراف حسم الأمور لصالحه [71].

ولكن الأوضاع الداخلية الإسبانية ما لبثت أن بدأت تشق طريقها نحو الهدوء النسبي، عندما بدأت أولى خطوات تحقيق الوحدة بين مملكتي قشتالة وأراغون، والتي تمثلت باقتران الأمير فرناندو (1452 – 1516م) وريث عرش أراغون بالأميرة إيزابيل (1451 – 1504م) وريثة عرش قشتالة عام 1469م، وكان من أهم شروط إتمام الزواج؛ ضرورة العمل المشترك على متابعة الحرب ضد المسلمين [72] ، ثم ما لبثت الوحدة الفعلية بين التاجين أن تحققت عام 1479م [73].

فتحت وحدة التاجين الباب على مصراعيه من أجل استئناف الحرب ضد الوجود الإسلامي في الأندلس، ولعبت المؤسسة البابوية دوراً كبيراً في دعم هذا التوجه [74] ، وبخاصة من جانب البابا سيستو الرابع (م1484 -1471) Sisto IV، الذي عمل على تشجيع الإسبان على وضع الخطط الكفيلة بالسيطرة على ما تبقى من الأندلس، والانتقال للسيطرة على بلاد المغرب أيضاً، ومن أجل تنظيم ذلك دعا البابا الإسبان والبرتغاليين إلى عقد اجتماع برعايته من أجل تقسيم مناطق النفوذ، فتمخض ذلك عن إبرام معاهدة الكاكوفاس Tratado de Alcacovas بين الطرفين، في الرابع من أيلول1479م، وجاء في أحد بنودها أحقية الإسبان في السيطرة على مملكة تلمسان (بلاد المغرب الأوسط) والأراضي الواقعة إلى الشرق منها، أما البرتغال فلها الحرية في السيطرة على بلاد المغرب الأقصى [75].

ومن جانبهما، استثمر الملكان فرناندو وإيزابيل هذا الدعم البابوي، واستغلا هشاشة الأوضاع الإسلامية الناتجة عن الصراع الداخلي على السلطة، وقاما بتوجيه الحملة تلو الأخرى ضد ما تبقى من مملكة غرناطة [76] ، حتى تمت لهما السيطرة على جميع مدنها، ولم يبق سوى عاصمتها؛ مدينة غرناطة [77] ، التي تعرضت لحصار مشدد، وقصف مدفعي عنيف، وحرب تجويع وإبادة على مدار سبعة شهور، مما اضطر أعيانها وعلى رأسهم آخر ملوك الأندلس أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن بن سعد (1487 – 1492م/ 892 – 897هـ) للموافقة على تسليم المدينة، فتم ذلك في الثاني من يناير 1492م/ الثاني من ربيع الأول897هـ، ورُفعت فوقها الأعلام المسيحية، ونُصبت الصلبان على قصور الحمراء، إيذاناً بانتهاء الحكم الإسلامي للأندلس، بعد أن دام فيها ثمانية قرون [78].

♦ **تنامي النزعة الصليبية والاستعمارية الإسبانية تجاه بلاد المغرب بعد سقوط غرناطة**: حرص الملكان فرناندو وإيزابيلا بعد سقوط غرناطة على تشكيل حكومتهما من أكثر القيادات الدينية تطرفاً وحقداً على الإسلام والمسلمين، وكان من أبرز هؤلاء الكاردينال فرانسيسكو خيمينيس دي ثيزنيروس [79] ، وسكرتير البلاط الملكي فرناندو دي ثافرا (م1507 -1460) Fernando de Zafra، الذي كان له دور كبير في صياغة وثيقة تسليم غرناطة، والأسقف إنييغو دي ميندوسا (م1515 -1440) Inigo de Mendoza، ومطران غرناطة الأب هرناندو دي تالابير (م1507 -1428) Hernando de Talevera ، وتولى هؤلاء مسؤولية رسم السياسات الإسبانية وتنفيذها، وعلى رأسها كثلكة الدولة، ومحو جميع مظاهر الوجود الإسلامي [80] .

ومما أدى إلى تكريس هذه النزعة لدى الإسبان؛ الدعم الكبير الذي لقَوه من المؤسسة الدينية في كل من إسبانيا وإيطاليا على حد سواء، وفي إطار الدعم المذكور، وتقديراً منه للدور الذي لعبه الملكان فرناندو وإيزابيلا في محاربة المسلمين والانتصار عليهم، وتشجيعاً لهما على الاستمرار في عمليات السيطرة والغزو خارج شبه الجزيرة الإيبيرية، فقد أصدر البابا اليساندرو السادس (م1503 -1492) Alessandro VI عام 1493م مرسوماً بابوياً قضى بمنحهما لقب " الملكين الكاثوليكيين [81] ." Reyes Catolicos

وعلى الصعيد الخارجي دعت الحكومة الجديدة إلى نقل الصراع إلى بلاد المغرب، وأفادت الأوساط التاريخية الإسبانية أن الملكين لم يكونا أقل حماساً من هؤلاء، إذ كانا يعتقدان بأن محاربة المسلمين في بلاد المغرب تشكل استمراراً للحرب ضد الأندلسيين، وتتويجاً للنصر الذي تحقق لهم بالسيطرة على مدينة غرناطة، ولم يقف طموحهما عند ذلك الحد، وإنما كانا يسعيان للوصول حتى الإسكندرية بمصر، ونشر المسيحية في شمال إفريقيا، ومن ثم الانتقال منها إلى الجناح الشرقي من العالم الإسلامي، لاستعادة القدس من أيدي المسلمين [82] .

وبرأي بعضهم، فقد كان الملوك الإسبان ينظرون إلى بلاد المغرب أنها كانت في السابق أرضاً مسيحية، ولا بد أن تعود للحكم المسيحي، مما جعلهم يميلون إلى أن الحرب الإسبانية ضد المسلمين في بلاد المغرب؛ ما هي إلا « حرب دينية صليبية ضد الكفرة أصحاب الهلال" [83]، وهذا ما أكده أيضاً رولان موسيه عندما قال بأن نشر الإنجيل (الديانة المسيحية) في البلاد المفتوحة كان من أهم أولويات الإسبان وأهدافهم [84] ، وعلى صعيد آخر، فقد هدف الإسبان أيضاً إلى قطع الصلات بين بلاد المغرب وبين مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة، وذلك من أجل حرمان الأندلسيين من الإعانة المادية والبشرية [85] .

♦ **ملاحقة الإسبان للمهاجرين الأندلسيين إلى بلاد المغرب، ومحاربة الجهاد البحري**: بدأت موجات المهاجرين الأندلسيين تصل بكثافة إلى بلاد المغرب، وبخاصة بعد أن تزايد سقوط المدن الأندلسية بيد الإسبان منذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، ومن أولى الموجات الكبيرة؛ تلك التي قدمت من المناطق الشرقية، وبخاصة بعد سقوط مدينة بلنسية [86] عام 1238م/ 635هـ، ثم توالت الهجرات الأندلسية من تلك المنطقة بعد سقوط مرسية [87] عام 1243م/ 640هـ، أما الموجة الأخرى فكانت قد نزحت من غرب الأندلس بعد سقوط إشبيلية [88] عام 1248م/ 646هـ، ونزل معظم النازحين في تونس وبجاية والمهدية وتلمسان وعنابة وتنس ووهران وهُنَين [89] ، ومنذئذٍ وحتى ما بعد سقوط غرناطة عام 1492م/ 897هـ، لم يتوقف سيل المهاجرين في التدفق إلى مدن بلاد المغرب، فراراً من القتل والتنصير، وبناء عليه؛ عقد الإسبان العزم على ملاحقة هؤلاء المهاجرين للانتقام منهم، وبخاصة أنهم كانوا يحمّلون المغاربة مسؤولية الفتح الإسلامي وتبعاته لشبه الجزيرة الإيبيرية [90] .

وكان من الطبيعي أن يمارس المغاربة والأندلسيون الجهاد البحري ضد الإسبان، نتيجة لشعورهم بالظلم التاريخي والجسدي والمعنوي الذي وقع عليهم، ولذلك لجأوا إلى صناعة السفن وتجريد الحملات ضد السفن والتجمعات السكانية الإسبانية الجنوبية والشرقية، مما أسهم في إنجاح عملياتهم معرفتهم بطبيعة السواحل الإسبانية، وتعاوُن من بقي من مسلمي الأندلس معهم، ولم تكن هذه الحملات البحرية تهدف إلى ممارسة حرب الاستنزاف ضد الإسبان فحسب؛ وإنما هدفت إلى تأمين عمليات نقل الراغبين بالهجرة إلى بلاد المغرب أيضاً [91] .

وكثيراً ما أدت هذه الهجمات إلى تخريب عدد المدن الساحلية الإسبانية حتى باتت خالية من سكانها، وذهب عدد من السفن الإسبانية ضحية الأسر بمن كان عليها من بحارة، وتحولوا إلى عبيد استُخدم معظمهم في عمليات التجذيف على متن السفن الإسلامية، فكان لهذه الهجمات تأثير بالغٌ على حركة الملاحة في الحوض الغربي من المتوسط، حتى باتت المنطقة الواقعة من جنوب شرق إيطاليا مروراً بجنوة حتى سواحل إسبانيا الشرقية تعيش حالة من الرعب [92] ، ومن الجدير بالذكر أن شواطئ المغرب بطبيعتها الوعرة وخلجانها الكثيرة قد ساعدت على ممارسة الجهاد البحري، وكان حكام الولايات والمدن الإسلامية يشجعون ذلك [93] .

وفي الوقت الذي كان المسلمون يعدون هذه الهجمات جهاداً في سبيل الله، عدّها الإسبان ومعهم بقية الأمم الأوروبية ضرباً من ضروب القرصنة البحرية، مما أثار استهجان عدد من المؤرخين، الذين عدّوها رداً طبيعياً على أعمال القمع والطرد التي

حصلت بحق الأندلسيين، بعد أن حكموا الأندلس وعمروها على مدار ثمانية قرون [94] ، وقيل بأن المسلمين لم يكونوا هم السباقين في مجال القرصنة، لأن من كانوا كذلك هم الأوروبيون أنفسهم، كاليونانيين والجنويين والمالطيين وأهالي سردانيا وغيرهم من الأمم الأوروبية [95] .

♦ **الدوافع الاقتصادية**: شهد النصف الثاني من القرن الخامس عشر نهضة اقتصادية أوروبية، رافقها سعي محموم للتوسع فيما وراء البحار والسيطرة على أراضي الغير، لنهب خيراتها في إطار ما يعرف بحركة الكشوف الجغرافية [96] ، وبالتزامن مع ذلك سعى الإسبان للسيطرة على موانئ بلاد المغرب الإسلامي الساحلية ومدنه بهدف تحقيق السيادة في البحر المتوسط، والسيطرة على خطوط التجارة الإسلامية ومراكزها، لإضعاف قوة المسلمين اقتصادياً، بدعم من المؤسسة السياسة والكنسية الإسبانية، وقد لاقى ذلك تشجيعاً من الدوائر التجارية الصاعدة في غرب أوروبا، والتي كانت تهدف هي الأخرى للسيطرة على طرق التجارة العالمية ومراكزها، وبذلك اشتركت رغبات الرأسمالية الأوروبية الناشئة مع آمال الكنيسة في السيطرة على بلاد المغرب وسواحله، حيث يمكن للحركات التبشيرية أن تؤدي دورها في خدمة المسيحية جنباً إلى جنب مع تحقيق الأهداف التجارية [97] ، مما يؤكد على جدلية العلاقة بين التجارة والدين وفق مقولة أن «التجارة سارت وراء الصليب، أو لعل التجارة هي التي قادت الصليب» [98] .

وفي السياق ذاته، رغب الإسبان في الاستحواذ على المنتجات الإفريقية لسد النقص الذي طرأ لديهم، بعد الزيادة التي طرأت على عدد السكان، في ظل التراجع الذي شهده النشاط الزراعي والصناعي، وبخاصة بعد طرد المسلمين من الأندلس، وبالمقابل كانت إسبانيا تتطلع أن تصبح بلاد المغرب سوقاً استهلاكياً لمنتجاتها [99] ، كما هدفت إلى احتكار تجارة المناطق الصحراوية الداخلية وبخاصة تلك القادمة من بلاد السودان، هذا بالإضافة إلى سعيهم للسيطرة على تجارة المعادن والتوابل التي كانت ترد إلى الموانئ الإسلامية عن طرق القوافل البرية، أو عن طريق البحر الأحمر من جنوب آسيا، وكذلك لمزاحمة البنادقة والجنويين الذين احتكروا تجارة الشرق الأدنى فترة طويلة وأغرقوا بها الأسواق الأوروبية، وأخيراً هدف الإسبان من وراء سعيهم للسيطرة على بلاد المغرب تأمين الطريق البحري بين صقلية الغنية بالحبوب، وبين مدينة إشبيلية الساحلية الشمالية الشرقية [100] .

وعليه فقد اتخذت إسبانيا من جميع العوامل المذكورة أسباباً ودوافع ومبررات من أجل غزو بلاد المغرب، والسيطرة على مدنه وموانئه، ووضع حاميات عسكرية على أراضيه، ومن ثم الانطلاق منها إلى داخل البلاد للسيطرة على مزيد من الأراضي، وتحقيق الأهداف التي كان الإسبان يسعون إليها [101] .

♦ **بداية الخطوات العملية العدوانية الإسبانية ضد بلاد المغرب**: بعد سقوط غرناطة، طالب عدد من الشخصيات الدينية والسياسية الإسبانية الملكين الكاثوليكيين الإسراع في السيطرة على بلاد المغرب، واتضح ذلك من خلال الرسائل التي رفعت إليهما، والتي كان أهمها رسائل سكرتير البلاط الملكي فرناندو دي ثافرا [102].

وتأكد من خلال هذه الرسائل لجوء الإسبان إلى استخدام الأساليب الاستخباراتية، وإرسال المبعوثين إلى مدن بلاد المغرب، للاطلاع على قدراتها الدفاعية وأحوال أهلها، ونقاط الضعف التي يمكن استغلالها بهدف السيطرة على تلك المدن، ووقف على رأس هؤلاء المبعوثين؛ لورينثو ثافرا Lorenzo Zafra وليثكانو ثافرا Lezcano Zafra وغارثيا دي أراريان Garcia de Arrarian، الذين قاموا بزيارات سرية لبلاد المغرب الأوسط خلال عامي 1493 – 1494م/ 898 – 899هـ، وبعد عودتهم إلى إسبانيا رفعوا ملاحظاتهم وتوصياتهم للملكين الكاثوليكيين، وأهم ما جاء في تقاريرهم؛ أن جميع دويلات بلاد المغرب تعاني من الضعف الشديد في قدراتها الدفاعية والتحصينية، وتمر بحالة من التفكك والانهيار السياسي والاقتصادي، مما سيجعل السيطرة عليها أمراً يسيراً [103].

ومما شجع البلاط الملكي الإسباني على التسريع بالبدء بمهاجمة مدن بلاد المغرب؛ اشتمال الرسائل المذكورة على مقترحات للخطوات العملية التي من شأنها إنجاح عمليات الغزو، بما فيها أعداد الجند والسفن، والتكاليف والميزانيات اللازمة؛ والتي قدرت بثمانية وعشرين مليون وثلاثمائة وخمسين ألف دينار مرابطي [104]، على أن تتحمل الجزء الأكبر منها المقاطعات الإسبانية الجنوبية والجنوبية الشرقية الواقعة على خطوط المواجهة مع شواطئ بلاد المغرب، كغرناطة ومرسية Murcia لأن هذه المقاطعات كانت على الدوام عُرضَة للهجمات الإسلامية المنطلقة من موانئ بلاد المغرب [105].

ومن أهم الشخصيات الأخرى التي لعبت دوراً كبيراً في توجيه السياسة الخارجية الإسبانية نحو بلاد المغرب الأسقف انييغو لوبيث دي ميندوسا، الذي اقترح أن تسهم الأقاليم المشار إليها أعلاه بأحد عشر ألف مقاتل، منهم ألف فارس، وثلاثة آلاف وخمسمائة من رماة الأسهم، بالإضافة إلى ألف وخمسمائة من حملة الرماح، وأن يتم تزويد هذه القوات بأسطول من السفن المسلحة بالمدفعية الثقيلة والمتوسطة والخفيفة والذخيرة والبارود [106].

ومما أسهم في دعم التوجهات الاستعمارية الإسبانية وتجسيده؛ قيام البابا أليساندرو السادس بعقد مؤتمر في بلدة توردسيلاس Tordesillas الإسبانية، في السابع من حزيران1494م، وتمخض عنه التوقيع على معاهدة تضمنت رسم خريطة قُسِّم العالم

بموجبها إلى قسمين شرقي وغربي، وذلك بخط يمتد من القطب الشمالي حتى القطب الجنوبي، من نقطة تبعد ثلاثمائة وسبعين فرسخاً إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر الأطلسية، وجاء في الاتفاقية أن جميع البلاد الواقعة غربي هذا الخط هي ملك للإسبان، أما البلاد الواقعة شرقيّه فللبرتغال [107].

وتضمنت معاهدة توردیسیلاس بنداً خاصاً حول تقاسم النفوذ بين الدولتين في بلاد المغرب، حيث ضمنت إسبانيا لنفسها الحق في امتلاك المناطق الواقعة إلى الشرق من شبه جزيرة بادس غمارة [108] في بلاد المغرب الأقصى، فيما ضمنت البرتغال لنفسها الحق في السيطرة على بلاد المغرب الأقصى، واتفق الطرفان على نقل الحرب التي وصفاها بالمقدسة من إسبانيا إلى شواطئ بلاد المغرب ومدنه، ونشر الديانة المسيحية بين سكانها [109].

♦ **السيطرة الإسبانية على بلدة مليلة 1497م/ 903هـ**: تقع بلدة مليلة غربي نهر ملوية في أقصى الساحل الشمالي الشرقي لبلاد المغرب الأقصى، على حدود المنطقة الفاصلة مع بلاد المغرب الأوسط، وكانت قد بنيت على رأس خليج قبالة مدينة المرية [110]، ولم تذكر المصادر الجغرافية أو التاريخية عدد سكانها في نهاية القرن الخامس عشر، إلا أن دورها بلغت نحو ألفين [111].

ومن ناحية أخرى، فقد أتت المصادر التاريخية على الأسباب التي دعت الإسبان لاختيار بلدة مليلة كأولى المواقع المرشحة للسيطرة، فمن الناحية الاستراتيجية، شكلت البلدة حداً فاصلاً بين مملكتي تلمسان وفاس، مما سيجعل السيطرة عليهما أمراً سهلاً إذا ما تمت السيطرة على هذه البلدة، وذلك من خلال تحويلها وميناءها إلى قاعدة انطلاق للأسطول الإسباني، وحتى تتخذ منها السفن التجارية والحربية ملاذاً آمناً خلال الأنواء البحرية [112].

وأما من الناحية التجارية؛ فقد تمتع موقع مليلة بأهمية كبرى، بسبب موقعها الساحلي الذي شكل حلقة وصل بين المناطق الداخلية في إفريقيا وبين أوروبا، وبالمقابل فإنه مما شجع الإسبان على اتخاذ القرار بالسيطرة عليها؛ النقص الشديد الذي طرأ على عدد سكانها، بسبب انتشار وباء الطاعون في بلاد المغرب الأقصى خلال تلك الفترة، حيث كان يموت في اليوم الواحد ألفان، مما جعل المنطقة برمتها قليلة السكان [113].

وبالإضافة إلى ذلك، كانت هذه البلدة من أكثر المدن الساحلية تأثُّراً بالصراعات والحروب التي لطالما نشبت بين ملوك الدولتين الزيانية والمرينية، ولذلك كانت تارة تتبع لمملكة تلمسان، وتارة أخرى لمملكة فاس، وفي كثير من الأحيان كانت تتمتع بشيء من

الاستقلال الذاتي، وكان الفاسيّون قد أهملوا تحصين أسوارها وأبراجها خوفاً من قيام التلمسانيين باتخاذها قاعدة للسيطرة على مملكتهم [114] ، هذا بالإضافة إلى الأحوال السياسية الداخلية المتردية التي كانت تسود بلاد المغرب الأقصى، وانشغال محمد الشيخ الوطاسي في حروبه مع القبائل البربرية غربي تلك البلاد [115] .

وما أن بات مشروع الغزو جاهزاً؛ حتى تصدّى دوق مدينة شذونة Medina- sidonia [116] خوان ألونسو دي غوزمان [117] (م1492 -1507) Juan Alonso de Guzman لقيادة قوات الحملة بنفسه وفق مرسوم ملكي خاص، وبخاصة أنه كان من أكثر رجال الدولة المتحمسين لاحتلال بلدة مليلة، « انسجاماً مع رغبته في محاربة المسلمين في بلاد المغرب خدمة للرب والملكين الكاثوليكيين» [118] .

وبعد أن تكفل الملكان الكاثوليكيان بدفع تكاليف الحملة كافة؛ بدأ غوزمان بالتحضيرات اللازمة، ومنها إيفاده بعثة استكشافية سرية من أجل الاطلاع على أحوال البلدة، وعندما وصلت إلى هناك لم يشعر الأهالي بها، فطافت حول الأسوار، واستطلعت أحوالها من حيث قوة تحصينها وقوام حاميتها، وما هي المواد الواجب جلبها من إسبانيا من أجل ترميم أسوارها وتحصينها بعد السيطرة عليها، ومن ثم عادت أدراجها إلى إسبانيا، وهناك قدمت تقريراً إلى الدوق أفادت فيه أن معظم أسوارها مهدّمة وتحصيناتها خربة، وأفادت في تقريرها أيضاً أن عملية الإعمار والتحصين تحتاج إلى ستمائة من الأيدي العاملة [119] .

وبناء على تعليمات الملك فرناندو؛ قام غوزمان باستدعاء بيدرو استوبينان Pedro de Estopinan (أصبح حاكماً لمليلة خلال 1498 – 1500م) ، حاكم مدينة سان لوكار San lucar الواقعة أقصى جنوب غرب إسبانيا، وذلك من أجل استشارته حول أفضل الطرق الواجب اتباعها لاحتلال البلدة، وما المواد الضرورية اللازمة من أجل إعادة إعمارها، وكذلك من أجل إشراكه في هذه الحملة، فأبدى استوبينان حماسه لهذه الفكرة، وأبدى ملاحظاته أيضاً [120] .

بناء على ذلك كله، أصدر الدوق أوامره لخمسة من القادة العسكريين القيام بالتحضيرات من أجل تجريد الحملة، وتم إرسال بعض سفن الكارافيل [121] Caravel، بالإضافة إلى سفن أخرى إلى مضيق جبل طارق حتى تكون جاهزة لنقل القوات، وتم تجهيز سلاح المدفعية والذخائر وعدة الحرب، بالإضافة إلى مواد الترميم وأدواته؛ كالمجاريف والأقواس المصلبة، وكميات ضخمة من الجير والخشب اللازمين لإعادة بناء القلعة، وتحصين الأسوار، وجيء أيضاً بالمواد التموينية التي اشتملت على كميات كبيرة من الدقيق، والنبيذ، ولحم الخنزير المجفف، والزيت [122] .

وفي الوقت الذي صمتت المصادر التاريخية عن عدد سفن الحملة، إلا أنها ذكرت أن عدد القوات قد بلغ خمسة آلاف من الفرسان والمشاة [123] ، وفي رأي آخر ثلاثة آلاف [124] ، ومن جهته اكتفى لورينثو دي باديا بالقول بأن قوات الحملة قد اشتملت على ستمائة من الأيدي العاملة، من أجل القيام بإعمار المدينة وتحصين مرافقها [125] .

وما أن اكتملت الاستعدادات اللازمة، حتى انطلق الأسطول المسيحي من ميناء مدينة سان لوكار في أيلول1497م بقيادة دوق مديناسيدونيا نفسه، يرافقه بيدرو استوبينان حاكم المدينة المذكورة [126] ، وذكر خيرونيمو ثوريتا بأن سكان مليلة والقبائل العربية المجاورة قد علموا بأمر هذه الحملة قبل وصولها إلى سواحل مدينتهم، ومن أجل مواجهة القوات الغازية حشدوا مائتي فارس وثلاثة آلاف راجل من القبائل البدوية القريبة المجاورة [127] .

ومما لا شك فيه أن المعرفة المسبقة من جانب أهالي مليلة والقبائل المجاورة بأمر هذه الحملة تعكس مدى يقظتهم وإدراكهم لطبيعة النوايا الإسبانية، ولكنهم كانوا على قناعة بأن إمكانياتهم الذاتية أضعف من أن تواجه الأسطول والجيش الإسباني، ولذلك سارعوا إلى طلب النجدة من السلطان محمد الشيخ الوطاسي، فلبى طلبهم رغم ظروفه الداخلية الصعبة، وأرسل لنجدتهم ألفاً من الفرسان، وتزامن وصولهم مع وصول القوات الإسبانية إلى مليلة، وما أن وصلت قوات الأسطول الإسباني إلى المياه الإسلامية قبالة البلدة؛ حتى بدأت بعملية النزول إلى البر [128] .

وقد انفرد باديا بالقول؛ أنه عندما بدأت القوات الإسبانية بالنزول، اندلعت اشتباكات عنيفة بينها وبين القوات الإسلامية، إلا أن الهجوم الإسباني الساحق لم يمكن المدافعين من الاستمرار، فهربوا إلى الجبال، ومنهم من لجأ إلى بلدة غساسة، مما مكن الإسبان من السيطرة على مليلة [129] .

وعلى الرغم من تأكيد لورينثو دي باديا على استبسال الأهالي في الدفاع عن مواقعهم، إلا أن بعض المؤرخين قالوا بأن البلدة قد استسلمت دون قتال، ومن هؤلاء؛ ميدينا الذي أفاد بأنه عندما وصل الأسطول الإسباني قبالة البلدة، أشار بيدرو أستوبينان على الدوق بعدم الاقتراب من البر، والبقاء في البحر بعيداً عن الشواطئ المغربية، والانتظار حتى يجنّ الليل من أجل القيام بعملية الإنزال، حتى لا يقوم المسلمون بمحاولة منع ذلك، وخلال الليل قام الإسبان بعملية الإنزال دون أن يشعر الأهالي بهم، ومن ثم شرعوا في نصب الألواح الخشبية والسلالم على الأسوار، ومع طلوع الفجر بدأت القوات الإسبانية بالصعود فوق الأسوار، مما شكل مفاجأة لأهالي البلدة، فاستسلموا دون قتال [130] .

وقيل بأن الأهالي فضلوا الفرار عن بلدتهم قبل وصول النجدة الوطاسية، ولم تحصل أية مقاومة من جانبهم، فوجد الإسبان البلدة خالية من سكانها، مما مكنهم من احتلالها بكل سهولة، وذلك في أيلول 1497م/ محرم 903هـ [131] ، وانفرد الوزان بالقول أنه عندما وصلت قوات النجدة الوطاسية إلى مليلة قامت بإضرام النار في منازلها عقاباً لأهلها على فرارهم، ونكاية بالمسيحيين [132] .

يستشف مما سبق أن التناقضات التي برزت خلال التطرّق لتفاصيل السيطرة على مليلة، قد تمحورت حول وجهتي نظر اثنتين؛ الأولى: بأن الأهالي وبالتعاون مع قوات النجدة الفاسية قد تمكنوا من جمع أربعة آلاف ومائتي مقاتل من أجل الدفاع عن البلدة، وأن اشتباكات عنيفة قد حصلت بين الجيش الإسباني المهاجم والقوات الإسلامية المدافعة، إلا أن الأخيرة لم تتمكن من الاستمرار، ربما بسبب قوة الهجوم الإسباني المفاجئ الذي تم خلال الليل، مما جعل عنصر المفاجأة يسهم في حسم نتائج المعركة لصالح الإسبان، على الرغم من أن أيّاً من المصادر التاريخية لم يتطرق إلى التفاصيل الدقيقة لعملية الاقتحام، ولم تأت على ذكر أية أرقام حول الخسائر البشرية، أو المادية في صفوف الجانبين خلال ذلك.

وأما وجهة النظر الثانية: فمالت إلى قيام الإسبان بالسيطرة على البلدة دون مقاومة، إما بسبب هروب أهلها عنها قبل قدوم القوات الإسبانية، أو بسبب استسلامهم للأمر الواقع، عندما رأوا أن الإسبان قد باتوا فوق الأسوار، وهذا يدلل أن الروايات التاريخية القائلة بخلو البلدة من سكانها قبل وصول المسيحيين قد تكون هي الأقرب إلى الحقيقة، وأن الرواية اليتيمة التي صدرت عن لورينثو دي باديا المقرب للبلاط الملكي الإسباني تعمدت الحديث عن المقاومة الإسلامية حتى تُظهر بطولات الإسبان، الذين آثروا ألّا يسجل الآخرون عليهم أنهم استأسدوا على مدينة خالية من السكان.

وبعد أن أحكم قبضته على المدينة، اهتم الدوق غوزمان وبيدرو إستوبينان بتحصين الأسوار، وإنشاء أبراج المراقبة تحت إشراف أفضل الخبراء والمهندسين، تحسباً لأي هجوم إسلامي محتمل، وقام الدوق غوزمان بتعيين الفارس غوميس سواريس Gomez Suarez (م1498 -1497)قائداً لقلعة مليلة [133] .

وبعد أن أقام الدوق في البلدة لمدة شهرين، أشرف خلالها على سير عمليات الإعمار والتحصين للأسوار والأبراج والقلعة، غادر إلى إسبانيا بعد أن ترك فيها حامية تكونت من مائة فارس، بالإضافة إلى الأيدي العاملة التي جلبها معه، من أجل الاستمرار في إعادة الإعمار [134] ، وفي رأي آخر قيل إنه ترك لحمايتها ثلاثمائة من المشاة وتسعين من الفرسان وبعض ضباط المدفعية [135] .

وتم الإبراق إلى الملكين فرناندو وإيزابيلا لزف البشرى بهذا الإنجاز الكبير، وطلب الدوق منهما ضرورة إرسال ما يلزم لإعمار المدينة وتحصينها وحمايتها من الهجمات الإسلامية، فأبديا سعادتهما بسماع هذه الأخبار، وقاما بكيل المديح للدوق على صنيعه الذي تميز بالشجاعة والبراعة على حد تعبيرهما، لأنهما كانا يأملان أن يشكل هذا الإنجاز باكورة الجهود الإسبانية للسيطرة على بلاد المغرب، ونشر الديانة المسيحية فيها، والتزما بمنح الدوق غوزمان مليونين وثمانمائة ألف دينار مرابطي سنوياً من أجل دفع مرتبات الجند والعمال، كما تم منح الحامية الإسبانية هناك كميات كبيرة من القمح من أجل مساعدتها على البقاء والصمود، ولمواصلة الحرب ضد المسلمين [136].

وفي رسالتهما المؤرخة في الثامن عشر من تشرين الاول1497م، والموجهة إلى دوق مديناسيدونيا أكد الملكان فرناندو وإيزابيلا على أهمية مليلة بالنسبة للعالم المسيحي، ودعياه هو واستوبينيان للمحافظة على هذا الموقع المهم، حتى لا تتعرض المصالح المسيحية في شمال إفريقيا للخطر، واستخدم الملكان العبارات الدينية لاستثارة عواطف الدوق، الذي أبدى حرصاً كبيراً على ضرورة الالتزام بالتعليمات الملكية [137].

وفي الثالث عشر من نيسان1498م اتفق الملكان معه على جميع الميزانيات والاحتياجات اللازمة للحفاظ على المدينة، وتم تحرير وثيقة بهذا الصدد في مدينة الكالا دي هيناريز Alcala de Henares، الواقعة شمال شرق مدريد، ووقع عليها كل من الملكين والدوق، والتزم فيها الملكان بالاستمرار في عملية التمويل، بينما التزم الدوق هو الآخر بالإبقاء على المدينة تحت سلطة التاج الملكي [138].

ووفاءً من التاج الملكي بهذه الالتزامات، فقد وجه الملك فرناندو من سرقسطة Zaragoza [139] رسالة في السادس من أيلول1498م إلى الدوق، تضمنت وصفاً للاحتياجات والمتطلبات التي أعدّها بهدف إرسالها إلى مليلة، ولم تقتصر الالتزامات الملكية على الاحتياجات الدفاعية والعسكرية فحسب، وإنما تعهد الملك فيها أيضاً بتوفير كل المتطلبات الضرورية للحياة العادية، كالحرفيين، والصناع، والمهنيين [140].

وفي وقت لاحق أرسل البلاط الملكي الإسباني إلى مليلة قوة تعزيزية تكونت من مائة من حملة الرماح، ومائة من حملة البنادق، بقيادة مانويل دي بينابيداس Manuel de Benavidas، ومعه أيضاً خمسمائة من الأيدي العاملة والمزارعين، بالإضافة إلى الموظفين، والأطباء، بهدف تدعيم الحامية الإسبانية، واستكمال عملية الإعمار [141]، وفي عام1500م، تم استقدام الفارس الإشبيلي غونزالو دي ريبيرا Gonzalo de Ribera (ت. 1520م) ؛ صاحب السجل الحافل في الحروب ضد مسلمي الأندلس، ليكون حاكماً وعمدةً لبلدة مليلة، فحكمها من العام المذكور حتى عام1510م [142].

ومن ناحية أخرى خشي ملك فاس الوطاسي أن تشكل السيطرة الإسبانية على مليلة مقدمةً للسيطرة على عاصمته وغيرها من المدن المغربية، ومن أجل تجنب ذلك؛ عمل على تعزيز سيطرته على بلدة غساسة المجاورة، فأرسل إليها ألفين وخمسمائة من الجند، وبدورهم عمل شيوخ غساسة على مد جسور علاقاتهم مع القبائل المجاورة من أجل منع الإسبان من الخروج من مليلة إلى باقي المناطق [143].

♦ **السيطرة الإسبانية على بلدة غساسة (1497 – 1504م/ 903 – 910هـ)** : بعد أن تم للإسبان إحكام سيطرتهم على مليلة، انشغلوا بالتصدي للثورات الإسلامية في جبال البشرات وحي البيازين في غرناطة (1499 – 1501م/ 904 – 906هـ) [144] ، والتي تأججت على خلفية سياسة القتل، والتنصير، والتهجير التي اتبعها الملكان الكاثوليكيان ضد من تبقى من مسلمي الأندلس، بتنفيذ مباشر من أسقفية طليطلة [145] ، وعلى رأسها الكاردينال فرانسيسكو خيمينيس دي ثيزنيروس، وفي الوقت ذاته حملت إسبانيا مسلمي بلاد المغرب مسؤولية تشجيع الأندلسيين ومساعدتهم على الثورة، مما عزز من قناعة الملكين بضرورة الاستمرار في مهاجمة المدن الإسلامية هناك واحتلالها [146].

ونظراً للأهمية التي أولاها الإسبان لبلدة غساسة، فقد صدرت التعليمات من قبل دوق مديناسيدونيا إلى حاكم مليلة غونزالو دي ريبيرا للقيام باحتلالها، ومن أجل المساعدة على إنجاز هذه المهمة؛ وصلت من ميناء مالقة [147] الإسباني بعض السفن الحربية وعلى متنها عدد من الرجال، وعندما وصل دي ريبيرا إلى غساسة حاول أهلها الدفاع عنها، ولكن القوات الإسبانية استخدمت المدافع في دك أسوارها وحصونها، وخلال ذلك شارفت الذخيرة وقذائف المدفعية على النفاذ، حينها قام الدوق بإنجاد القوات الإسبانية المحاصرة، مما مكن الإسبان من كسر المقاومة الإسلامية والسيطرة على البلدة وقلعتها، فتم شحنها بالرجال، والعتاد، والمدفعية، والمواد التموينية [148].

وعلى العكس مما قيل بأن الهجوم الإسباني قد جوبه بمقاومة ضارية من قبل أهالي غساسة، أفاد بعضهم بأنه عندما وصلها دي ريفييرا استطاع التفاهم مع سكانها، فاستسلموا دون مقاومة [149] ، وقيل أيضاً؛ بأنه عندما وصلها وجدها خالية من سكانها، بعد أن فروا عنها بأرواحهم ومتاعهم خوفاً من القتل، فاحتلها دون عناء [150].

وفي الوقت الذي لم تأت فيه معظم المصادر التاريخية على ذكر العام الذي سقطت فيه غساسة بيد الإسبان، إلا أن إحدى الوثائق أفادت أنه وبسبب جهود جوان الفونسو دي

غوزمان، والتي تمخضت عن احتلال غساسة فقد كافأه الملكان فرناندو وإيزابيل في الرابع من تشرين الأول1504م، بمنحه لقب ووسام «مركيس غساسة Marques de la Cazaza "، تقديراً له على جهوده في فتح هذه البلدة القوية والحصينة [151]، مما يدعو للاعتقاد بأن المدينة ربما تكون قد سقطت في ذلك العام أو قبله بقليل، إلا أن المؤرخ الإسباني بيرنالديز أشار بأن غساسة قد احتلت في العام الذي سقطت فيه مليلة، ثم عاد ليذكر في موضع آخر من كتابه أن مدينة غساسة قد سقطت في نيسان من عام1506م [152] ، كما أفاد خيرونيمو ثوريتا بأنها سقطت في التاريخ الأخير [153] .

على أية حال فقد اتضح أن السياسة التوسعية الإسبانية لم تقف عند حدود مليلة فحسب، بل تعدتها إلى المناطق المجاورة، فسيطرت على بلدة غساسة معتقدة أن بقاءها وقلعتها بيد المسلمين يشكل خطراً كبيراً على الوجود الإسباني في مليلة، وتجدر هنا الإشارة، أن ارتباكاً كبيراً قد ساد المصادر التاريخية حيال تحديد العام الذي احتلت فيه بلدة غساسة، ولذلك تهرّبت المراجع التاريخية الحديثة من تحديده خشية الوقوع في الخطأ على ما يبدو، واكتفت بالقول بأن غساسة قد احتلت بعد أن تم للإسبان السيطرة على مليلة، وإزاء هذا الاشكال؛ يبدو بأن غساسة قد احتلت خلال الفترة الواقعة ما بين 1500م و 1504م، مع ترجيح العام الأخير أو قُبيله بقليل، ومما يدعم هذا الرأي؛ بأن من قام بالسيطرة على غساسة هو حاكم مليلة غونزالو مارينو دي ريبيرا، الذي كان قد استلم الحكم في مليلة عام1500م، وكذلك ما ورد في الوثيقة المشار إليها من أن البلاط الإسباني قد منح دوق مديناسيدونيا لقب مركيس غساسة عام 1504م.

وتأكيداً على استراتيجيات السياسة الخارجية الإسبانية تجاه المسلمين؛ لم تغفل الملكة إيزابيلا أمر بلاد المغرب، حتى وهي تصارع الموت، حينما كتبت وصيتها، والتي دعت فيها زوجها الملك فرناندو وابنتها خوانا القشتالية Juana de Castilla (م1555 -1479) ملكة قشتالة وزوجها الأمير فيليب الأول (م1506 -1478) Felipe I؛ إلى ضرورة الاستمرار في غزو بلاد المغرب، لتنصير أهله، ورفع شارة الصليب فوق أراضيه بدلاً من الهلال، فتقاطعت وصيتها تلك مع طموحات الملك، وكبار رجال الدولة، وكان لهذه الوصية أثرٌ كبيرٌ في إلهاب حماسهم الروحي، للاستمرار بالحرب المقدسة ضد مسلمي بلاد المغرب، بدعم من المؤسسة البابوية في روما [154] ، فشكل كلّ ذلك أرضيةً صلبةً، انطلقت منها السياسة الإسبانية تجاه بلاد المغرب خلال الفترات اللاحقة.

نتائج البحث:

بعد كتابة هذا البحث وإنجازه، يمكن استخلاص عدد من النتائج، أهمها:

لم تقف الحروب الصليبية في حدودها الزمانية عند تاريخ 1291م، ولم تنحصر مكانياً ببلاد الشرق الإسلامي الأدنى، ولكنها انتقلت إلى أطوار وأماكن جديدة، وما السياسة العدوانية الإسبانية المدعومة من البابوية تجاه مسلمي كل من الأندلس والمغرب، إلا جزءاً من تلك الحروب وامتداداً لها، ولذلك فإنه من الإجحاف المنطقي والتاريخي إخراج تلك السياسة من دائرة مفهوم «الحروب الصليبية»، كما يحلو للبعض أن يفعل.

وأشارت تفاصيل البحث بشكل واضح إلى جدلية العلاقة التاريخية، والدينية، والحضارية، والسياسية ما بين الأندلس والمغرب، ولعل من أهم مظاهر ذلك؛ أن انهيار الوجود الإسلامي في الأندلس ما لبث أن أثّر سلباً على واقع بلاد المغرب، فوقعت الأخيرة بعد ذلك مباشرة ضحية للسياسة الصليبية، والاستعمارية الإسبانية، والتي تعد استمراراً للسياسة الإسبانية تجاه مسلمي الأندلس.

وشكّلت الفترة الواقعة ما بين 1492 و 1504م، وما تخللها من تزايدٍ للنزعة الاستعمارية الصليبية في إسبانيا القاعدة التي أسست لحركة الاستعمار الصليبية في بلاد المغرب، والتي لا نزال نرى ذيولها على صورة الجزر والمواقع المغربية المحتلة بما فيها مليلة، التي لا تزال ترزح تحت نير السيطرة الإسبانية إلى يومنا هذا.

وأخيراً؛ بيّن البحث أهمية الوحدة الداخلية للمجتمعات والكيانات السياسية في مواجهة الأخطار الخارجية، وبالمقابل خطورة الضعف الداخلي على بقاء الدول ومنعتِها وديمومتها.

الهوامش:

1. الدولة الموحدية: دولة إسلامية قامت في بلاد المغرب، وعاصمتها مراكش، أسسها المهدي محمد بن تومرت (1121 – 1130م/ 515 – 524هـ) ، وبناها ووطد أمرها خليفته عبدالمؤمن بن علي الكومي (1130 – 1163م/ 524 – 558هـ) ، وبقيت هذه الدولة تحكم معظم بلاد المغرب إلى أن ضعفت وبادت عام1269/ 668هـ، للاطلاع على تاريخها، انظر: الزركشي، أبا عبد الله، محمد بن إبراهيم (كان حياً عام1488م/ 894هـ): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.

2. معركة العقاب: حدثت بين الإسبان بقيادة الملك القشتالي ألفونسو الثامن Alfon-so VIII (1158- 1214م/ 553- 611هـ) والموحدين بقيادة الخليفة محمد الناصر (1198 – 1213م/ 594 – 610هـ) ، في موضع يقال له العقاب شرقي الأندلس عام1212م/ 609هـ، ودارت الدائرة فيها على الموحدين، انظر: المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت. 1631م/ 1040هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، (د. ط) ، دار صادر، بيروت، 1988م، ج4، ص383.

3. القالة: مدينة تقع على بعد ما يقرب من خمسة وستين ميلاً إلى الغرب من مدينة عنابة، على ساحل البلاد الجزائرية، انظر: ابن حوقل، أبا القاسم بن حوقل النصيبي (ت. 990م/ 380هـ): صورة الأرض، (د. ط) ، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م، ص76.

4. Marceir, Ernest: Histoire L› Afrique Septentroinal, 3vols. , Ernest Leroux, Paris, 1868, II, pp. 219- 220.

5. جزيرة جربة: تقع في الجزء الجنوبي من خليج قابس التونسي، وعلى بعد خمسة وثلاثين ميلاً من مدينة قابس الساحلية، يفصلها عن اليابسة برزخ قليل العرض، أرضها رملية، وتكثر فيها أشجار النخيل والكروم والزيتون، انظر:

Marmol, Carvajal, Luis del (1520- 1600) : L›Afrique, 3vols. , T. Tolly, Paris, 1667, II, p. 539.

6. Zurita, Jeronimo (1512- 1580) : Anales de la Corona de Aragon, ed. de A. C. Lopez Zaragoza, 1967- 1977, Lib. IV: Cap. XLIX.

7. طرابلس: مدينة ساحلية على بعد ما يقرب من أربعمائة ميل جنوب شرق مدينة تونس، وكانت قد بنيت في سهل رملي مليء بالأشجار وخاصة النخيل، انظر: الإدريسي، محمد

بن محمد (ت560هـ/ 1164م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزءان، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1989م، ج1، ص297 و299.

8. المهدية: مدينة ساحلية شرقي البلاد التونسية، على بعد ستين ميلاً جنوب شرق مدينة القيروان، وسميت بالمهدية نسبة لبانيها عبيد الله المهدي (909 – 934م/ 297 – 322هـ) ، يحيط البحر بها من ثلاث جهات، ولها سور وحصن منيعين، وميناء حسن، انظر: الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت. 1495م/ 900هـ) : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (د. ط) ، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص172.

9. Marceir, Op. cit, p. 233.

10. سبتة: مدينة ساحلية تقع شمال بلاد المغرب الأقصى، على مضيق جبل طارق، قبالة الجزيرة الخضراء، يحيط بها سور، وإلى الغرب منها يقع جبل موسى، نسبة للوالي موسى بن نصير (ت. 97هـ) ، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص303.

11. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت. 1405م/ 808هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7 أجزاء، (د. ط) ، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1971م، ج7، ص178.

12. نهر ملوية: أحد أنهار بلاد المغرب الأقصى، ينبع من جبال تازا الواقعة في شرقيها، ومن روافده نهري زيز وسجلماسة، ويصب في البحر المتوسط عند بلدة غساسة، انظر: المراكشي، عبدالواحد (ت. 1249م/ 647هـ) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه: محمد العريان ومحمد العلمي، (د. ط) ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1949م، ص364.

13. Acero, Beatriz Alonso: Oran y Mazalquivir en la Politica Norteafricana de Espana 1589- 1639, Tesis Doctoral, Departamento de la Historia Moderna, Facultad de Geografia e Historia, Universidad Complutense de Madrid, 1997, p. 2.

14. الزركشي، المصدر السابق، ص94.

15. عنابة: مدينة ساحلية جزائرية، على بعد مائة وعشرة أميال شرقي مدينة جيجل، بنيت على سفح منحدر، وكانت تدعى خلال الفترة الرومانية باسم هيبون Hippon، انظر:

Nicolay, Nicolas de (1517- 1583) : Les Navigations, Peregrinations et Voyages Faicts en la Turquie, G. Silvius, Anvers, 1576, p. 23.

16. ابن القنفذ، أبو العباس، أحمد بن حسين (ت. 1407م/ 810هـ) : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق: محمد النيفر وعبدالمجيد التركي، (د. ط) الدار التونسية للنشر، تونس، (د. ت) ، ص196.

17. تطوان: مدينة مغربية تقع على بعد واحد وثلاثين ميلاً جنوب غرب مدينة سبتة الساحلية، انظر: سرهنك، إسماعيل: حقايق الأخبار عن دول البحار، جزءان، ط1، بولاق، القاهرة، 1312هـ، ج1، ص273.

18. جزائر قرقنة: جزيرتان صغيرتان تقعان في الجزء الشمالي من خليج قابس، قبالة الساحل الشرقي للبلاد التونسية، على بعد عشرة أميال شرقي مدينة صفاقس، انظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت. 1229م/ 626هـ) : معجم البلدان، 8 أجزاء، تقديم: محمد المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م، ج7، ص35.

19. الزركشي: المصدر السابق، ص126 – 127.

20. المصدر نفسه، ص129.

21. عمران، محمود سعيد: الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي برين على مصر 1218 – 1221م/ 615 – 618 هـ، ط2، دار المعارف، الإسكندرية، 1985م، ص369.

22. للاطلاع على المشاريع الصليبية التي طرحت منذ نهاية القرن الثالث عشر، انظر: حسين، ممدوح و مصطفى، شاكر: الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري 668 – 792هـ/ 1270 – 1390م، ط1، دار عمار للنشر، عمان– الأردن، 1998م، ص385.

23. برقة: مدينة كبيرة تقع بين على حدود الصحراء الغربية المصرية، وتبعد عن البحر ستة أميال، وتتميز بتربتها الرملية الحمراء الخصبة، وتشتهر بصناعة الجلود وزراعة القطن، ويسمى إقليمها باسمها، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص91.

24. الإصطخري، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد (ت. 950م/ 339هـ) : مسالك الممالك، طبعة ليدن، دار صادر، بيروت، 1927م، ص36 – 37؛ المقدسي، شمس الدين، أبي عبد الله محمد (ت. 1000م/ 390هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، دار صادر، بيروت، 1909م، ص216.

25. أحمد، مصطفى أبو ضيف: أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصري الموحدين وبني مرين، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982م، ص26.

26. حسين، المرجع السابق، ص52.

27. صلاح العقاد: المغرب العربي، دراسة في تاريخه الحديث وأحواله المعاصرة، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966م، ص9.

28. أبو الفداء، عماد الدين، إسماعيل بن محمد (ت. 1332م/ 732هـ) : تقويم البلدان، (د. ط) ، دار صادر، بيروت، 1840م، ص122. بجاية: مدينة على ساحل البحر المتوسط، على بعد مسير أربعة أيام شرقي مدينة الجزائر، انظر: البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت. 1339م/ 739هـ) : مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، 3 أجزاء، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992م، ج1، ص330. وعلى بعد ستة وثلاثين ميلاً إلى الغرب من مدينة جيجل، انظر:

Davity, Pierre (1573- 1635) : Description Generale de l›Afrique, 1st. ed. , C. Sonnius, Paris, 1637, p. 191.

29. القلقشندي، أبو العباس، أحمد بن علي (ت. 1418م/ 821هـ) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (د. ط) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، (د. ت) ، ج5 ص100، أفريقية: سميت بهذا الاسم نسبة لأفريقش بن أبرهة ملك اليمن بعد أن غزاها، وقيل أن معنى أفريقية «صاحبة السماء»، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص47.

30. حسين، المرجع السابق، ص54.

31. الوزان، الحسن بن محمد الفاسي (1483 – 1550م/ 888 – 957هـ) : وصف إفريقيا، جزءان، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت– الرباط، 1983م، ج2، ص33، ص58.

32. أبو الفداء، المصدر السابق، ص122.

33. Elliott, J.: Imperial Spain 1469- 1716, 1st. ed. , Penguin Group, London, 1963, p. 33.

34. بلاد السودان أو أرض السودان: هي البلاد الواقعة جنوب صحراء بلاد المغرب، وشكلت على الدوام معبراً للتجار القادمين من مملكة تنبكتو، انظر: الوزان، المصدر السابق، ج1، ص29.

35. يحيى، جلال: تاريخ المغرب الكبير، 4 أجزاء، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ج3، ص–4 5.

36. للإطلاع على تاريخ المملكة الحفصية، انظر: ابن الشماع، أبا عبد الله، محمد بن أحمد (ألف كتابه عام1457م/ 861هـ) : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، (د. ط) ، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984م؛ المطوي، محمد العروسي: السلطنة الحفصية، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، (د. ط) ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

37. للمزيد انظر: التنسي، محمد بن عبدالله (ت. 1494م/ 899هـ) : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود بوعياد، د. ط، موفم للنشر، الجزائر، 2011م.

38. للإطلاع على نشأة وتاريخ الدولة المرينية انظر: الفاسي، علي بن أبي زرع (ت. 1340م/ 741هـ) : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، (د. ط) ، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م؛ الحريري، محمد عيسى: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987م.

39. السراج، محمد بن محمد الأندلسي (ت. 1736م/ 1149هـ) : الحلل السندسية في الأخبار التونسية، 3 أجزاء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م، ج2، ص195 – 198. وللمزيد عن واقع حركة التصوف في بلاد المغرب خلال القرن الخامس عشر، انظر: Marceir, Op. cit. , III, pp. 12- 14.

40. الجزائر: وتسمى ايضاً جزائر بني مزغنة، نسبة لإحدى القبائل التي سكنتها، لها مرسى كبير، ويتصل بها فحص متيجة، وتبعد عن شرشال سبعين ميلاً، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص163.

41. الزركشي، المصدر السابق، ص150 – 154.

42. السراج، المصدر السابق، ج2، ص196.

43. العامري، محمد الهادي: تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون، (د. ط) ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974م، ص145.

44. الزركشي، المصدر السابق، ص137 – 146، ولمزيد من الاطلاع على الثورات التي انطلقت من بجاية، انظر: المطوي: المرجع السابق، ص621 – 624.

45. ابن أبي الضياف، أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 4أجزاء، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، (د. ط) ، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999م، مج1، ج2، ص189 – 190.

46. الزركشي، المصدر السابق، ص129.

47. وهران: مدينة ساحلية في بلاد المغرب الأوسط، على بعد مائة وأربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من مدينة تلمسان، واشتهرت منذ القدم بحيوية أسواقها وكثرة صنائعها ورواج تجارتها وكثرة بساتينها وثمارها، انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص252.

48. مليانة: مدينة جزائرية تقع على بعد خمسة وعشرون ميلاً جنوب مدينة شرشال الساحلية، وصفت بأنها مدينة قديمة وحسنة البناء، وتنتشر حولها المزارع، انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص253.

49. تنس: مدينة جزائرية مسورة حصينة، تقع على بعد ما يقرب من مائة وخمسين ميلاً غرب مدينة الجزائر، بني بعضها على سفح جبل، وبني البعض الآخر في السهل، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص138.

50. المزاري، أبو إسماعيل بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا، تحقيق: يحيى بوعزيز، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص194 – 195.

51. مستغانم: مدينة ساحلية مسورة في المغرب الأوسط، تقع إلى الغرب من مدينة الجزائر وإلى الشرق من مدينة وهران، بنيت بين مصب واديين مشهورين هما: مصب وادي الشلف في الشمال الشرقي منها ومصب وادي المقطع في الجنوب الغربي منها، انظر: الوزان: المصدر السابق، ج2، ص32.

52. تلمسان: قاعدة بلاد المغرب الأوسط، وهي مدينة مسورة لها خمسة أبواب، وبالقرب منها يجري نهر سطفسيف، وتشرف على سهل طوله خمسة وعشرون ميلاً، وإلى الشمال الشرق منها تقع مدينة وهران، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص135.

53. الزركشي، المصدر السابق، ص152 – 153.

54. Barges, l›Abbe J.: Complement de l›Histoire des Beni- Zeiyan, Rois de Tlemcen, Ernest Leroux, Paris, 1887, p. 353.

55. المنصورة: مدينة اختطها الملك يوسف بن يعقوب المريني (1286 – 1306م/ 685 – 706هـ) بجانب مدينة تلمسان خلال حصاره للأخيرة، فاكتمل بناؤها عام 1302م/ 702هـ وشيّد فيها قصوراً ودوراً وحمامات ونزل ومشافي، انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص221.

56. Barges, Op. cit. , pp. 355- 356.

57. Ibid. , p. 403.

58. أصيلا: مدينة ساحلية مسورة تقع شمال غرب بلاد المغرب الأقصى، بنيت في سهل كثير الخصب، وعليها خمسة أبواب، ولها مرسى حسن، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص42.

59. طنجة: مدينة ساحلية تقع شمال بلاد المغرب الأقصى، بينها وبين سبتة ثلاثون ميلاً، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص396.

60. فاس: قاعدة بلاد المغرب الأقصى، وهي عبارة عن مدينتين يفصل بينهما نهر كبير يسمى وادي فاس، ويحيط بالمدينة سور كبير، وكانت فاس قد تأسست على يد الأدارسة في الربع الثاني من القرن الثاني الهجري، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص434.

61. الناصري، أبو العباس، أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 8 أجزاء، تحقيق: جعفر ومحمد الناصري، د. ط، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ج4، ص95 – 99؛ انظر أيضاً: الحريري، المرجع السابق، ص185 – 187.

62. الوطاسيون: ملوك الدولة الوطاسية (1465 – 1554م/ 869 – 961هـ) التي قامت على أنقاض دولة بني مرين في بلاد المغرب الأقصى، ولمزيد من المعلومات عنها، راجع: أبو دياك، صالح: دولة بني وطاس ودورها السياسي والحضاري في المغرب، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1982م.

63. الناصري، المصدر السابق، ج4، ص119 – 124.

64. شرشال: مدينة في المغرب الأوسط على بعد سبعين ميلاً غربي مدينة الجزائر، اشتهرت بغنى محيطها بالأشجار والمياه، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص340.

65. العروي، عبدالله: تاريخ المغرب، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977م، ص227.

66. المرجع نفسه، ص238 – 239.

67. القيروان: مدينة تونسية تقع على بعد مائة ميل جنوب مدينة تونس، بناها الفاتح المسلم عقبة بن نافع الفهري (622 – 683م/ 1 – 63هـ) عام670م/ 50هـ، انظر: ابن حوقل، المصدر السابق، ص7.

68. علي بك، محمود إدريس: طرابلس الغرب منذ الهجرة الهلالية إلى بداية العصر العثماني، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1998م، ص356.

69. العروي، المرجع السابق، ص227.

70. عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، ط 4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م، ص85 – 88.

71. Zurita, Anales, Op. cit. , Lib. XI: Cap. IX.

72. Ibid. , Lib. XVIII: Cap. XXVI.

73. Fredet, Peter: Modern History From the Coming Christ and the Change of the Roman Republic Into an Empire to the Year of Our Lord 1850, 10th. ed. , Charles Dolman Com, London, 1853, p. 347.

74. Strayer, Joseph R. and Munro, Dana C.: The Middle Ages, 4th. ed. , Appleton- Century- Crofts, New York, 1959, p. 511.

75. Acero, Op. cit. , p. 3.

وللاطلاع على كامل بنود معاهدة الكاكوفاس، انظر:

Davenport, F. and Paullin, C.: European Treaties Bearing on the History, Lawbook E. , New- Jersy, 2004, pp. 35- 48.

76. مملكة غرناطة: اشتملت على الأراضي الواقعة جنوبي نهر الوادي الكبير، وتضمنت ثلاث ولايات؛ غرناطة والمرية ومالقة، انظر، ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (1374م/ 776هـ) : الإحاطة في أخبار غرناطة، 4أجزاء، تحقيق: محمد عبدالله عنان، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974م، ج1، ص16.

77. غرناطة: أو أغرناطة، عاصمة مملكة غرناطة، وتقع جنوبي البلاد الأندلسية ضمن أعمال البيرة، وهي مدينة مسورة تقع على وادي حدرة المتفرع من نهر شنيل؛ أحد روافد نهر الوادي الكبير، وتبعد عن مدينة وادي آش أربعين ميلاً، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص45.

78. Zurita, Anales, Op. cit. , Lib. XX: Cap. XCII.

ولمزيد من التفاصيل حول مراحل السيطرة الإسبانية على مدينة غرناطة، انظر:

Bernaldez, Andres (1450- 1513) : Historia de los Reys Catolicos, 2Vols. , Liberia de D. Jose M. Zamora, Granada, 1856, I, pp. 214- 230.

Irving, Washington: The Works of Washington Irving, G. P. Putnam, New York,1852, XIV, pp. 481- 527.

79. الكاردينال فرانسيسكو خيمينيس دي ثيزنيروس: ولد بقشتالة عام1436م، درس الفلسفة والتوحيد ودخل سلك الرهبنة، وأصبح من أقرب رجال البلاط للملكين فرناندو وإيزابيل، شغل منصب رئيس أساقفة طليطلة خلال (1495 – 1517م) شديد العداء

للإسلام والمسلمين في الأندلس والمغرب، ولما مات الملك فرناندو في الثالث والعشرين من كانون الثاني عام1516م، تولى خيمينيس مهمة تسيير شؤون الدولة حتى قبيل وفاته عام1517م، ولمزيد من الإطلاع على سيرته، انظر:

Baudier, Michel (1589- 1645) : Histoire de l›Administration du Cardinal Ximenes Grand Ministre d›Estat en Espagne, S. Cramoisy, Paris, 1635, pp. 1- 20.

80. Zurita, Jeronimo (1512- 1580) : Historia del Roy Don Fernando el Catolico, 2Vols. , de las Empresas, y Ligas de Italia, Zaragoza, 1580, I, P. 209.

81. Davila, Gil Gonzalez (1578- 1658) : Teatro Eclesiastico de las Iglesias Metropolitanes, y Catedrales de los Reynos de las Dos Castillas, P. de Horna y Villanueva, Madrid, 1547, II, p. 279.

82. Zurita, Historia, I, P. 209.

83. Housley, Norman: The Later Crusades 1274- 1580, From Lyons to Alcazar, 1st. ed. , Oxford Univesity Press, New York, 1992, p. 305.

84. موسنيه، رولان: تاريخ الحضارات العام، القرنان السادس عشر والسابع عشر، إشراف موريس كروزيه، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، ط2، منشورات عويدات بيروت– باريس، 1987م، ج4، ص424.

85. الغنيمي، عبد الفتاح مقلد: موسوعة تاريخ المغرب العربي، 6 أجزاء، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م، ج6، ص87.

86. بلنسية: عرفت بمدينة التراب، تقع على ضفة المتوسط شرقي بلاد الأندلس، وكانت تتبع لها مناطق أخرى، انظر: الحموي، المصدر السابق، ج2، ص386.

87. مرسية: مدينة في كورة تدمير بالشرق الأندلسي، ولها نهر يسمى باسمها، وتبعد عن بلنسية خمس مراحل، انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص557 – 559.

88. إشبيلية: مدينة تقع على نهر الوادي الكبير، معنى اسمها المدينة المنبسطة، وهي من بناء الرومان، ويطل عليها جبل الشرف، واشتهرت بالزيتون والقطن وقصب السكر، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص58 – 60.

89. هنين: مدينة ساحلية تبعد ما يقرب من أربعة وثلاثين ميلاً إلى الشمال من مدينة تلمسان، وثلاث وتسعين ميلاً إلى إلى الغرب من مدينة وهران، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص597.

90. سعيدوني، ناصر الدين: مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ص44.

91. Currey, E. ,: Sea- Wolves of the Mediterranean, J. Hurrey, London, 1910, p. 30.

92. Ibid.

93. Manesson- Mallet, A. (1630- 1706) : Description de l›Univers, 5 vols. , D. Thierry, Paris, 1683, III, pp. 22- 25.

94. Kumrular, Ozlem: El Duelo Entre Carlos V y Soliman El Magnifico (1520- 1535) , Doctoral Thesis, Departamento de Historia Medieval, Moderna, Universidad de Salamanca, Espana, 2004, p. 122.

95. عنان، المرجع السابق، ص383.

96. للإطلاع على حركة الكشوف الجغرافية، انظر: شاكر، محمود: الكشوف الجغرافية، دوافعها– حقيقتها، ط2، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1988م.

97. الراقد، محمد: الغزو العثماني لمصر ومطلع العهد العثماني فيها، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1968م، ص146 – 147.

98. عمران، محمود سعيد: تاريخ الحروب الصليبية 1095 – 1291م، د. ط، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2000م، ص347.

99. المنصوري، عثمان: التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2001م، ص 265.

100. فارس، محمد خير: تاريخ الجزائر الحديث منذ الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط2، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1979م، ص14.

101. الحاميات العسكرية: المواقع والتجمعات العسكرية الإسبانية المسماة Presidios ومفردها Presidio، واشتق هذا الاسم من الكلمة اللاتينية praesidia، وتعني الحصن المسور والمخصص لإيواء المجرمين من المحكوم عليهم بالسجن لفترات طويلة، ويتم تشغيلهم بأعمال تعود بالنفع على الدولة، وكان هذا النمط من الحصون أو السجون قد شاع خلال العصور الوسطى، أما الإسبان فاستخدموا هذا المصطلح للإشارة إلى مستعمراتهم المشتملة على حاميات عسكرية، كما كان عليه الحال في بلاد المغرب، انظر:

Pike, Ruth: Panal Servitude in Early Modern Spain, University of Wisconsin press, Madison, 1983, p. 41.

102. Zafra, Fernando de (1460- 1507) : Carta de Fernando de Zafra a los Senores Reyes Catolicos, Granada 12 Febrero 1494, Archivo General de Simancas (A. G. S.) , legajo num. 1315, C. f. , Real Academia de la Historia: Coleccion de Documentos Ineditos Para la Historia de Espana (CODOIN) , 112 vols. , Imprenta de la Viuda de Calero, Rafael Marco y Vinas, Miguel Ginesta, Madrid, 1842- 1895, LI, 1867, pp. 78- 83.

103. Zafra, carta de Fernando de Zafra a Los Reyes Catolicos, Malaga 2 Abril 1494, A. G. S. , legajo num. 1315, C. f. , CODOIN, Op. cit. , XIV, pp. 480- 481.

104. الدينار المرابطي: وحدة نقد ذهبية أو فضية استخدمت في إسبانيا منذ الفترة المرابطية وحتى القرن التاسع عشر الميلادي، انظر:

Sedillot, Rene: Toutes les Monnaies du Monde, R. Sirey, Paris, 1955, pp. 170- 171.

105. Zafra, Copia de Minuta Enmendada Por Fernando de Zafra, del Presupuesto de la Gente y Dinero Para la Espedicion de Africa (sin fecha) , A. G. S, legajo num. 1315, C. f. , CODOIN, Op. cit. , LI, p. 108.

106. Zurita, Historia, II, P. 25.

107. Ibid. , I, pp. 30- 32.

108. جزيرة بادس غمارة: شبه جزيرة صخرية تكونت بفعل امتداد لسان بري داخل البحر في الساحل الشمالي من المتوسط، في المنطقة الواقعة على بعد أربعة وسبعين ميلاً جنوب شرق مدينة سبتة، وتتميز بعلو تضاريسها ووعورتها الشديدة؛ بحيث لا يمكن الوصول إلى قمتها إلا عبر ممر ضيق لا يستطيع تسلقه سوى شخص واحد، ولها ميناء حسن يحوي داراً لصناعة السفن، انظر: Marmol, Op. cit. , II, p. 252.

109. Zurita, Historia, I, p. 48.

وحسب رأي البعض فقد اعتبرت معاهدة توردیسیلاس أول عملية تقسيم استعمارية للعالم برعاية بابوية، انظر: نجيه، جان بير، وآخرون: موسوعة تاريخ أوروبا العام، جزءان، ترجمة: وجيه البعيني، ط1، منشورات عويدات، بيروت– باريس، 1995م، ج1، ص244. ولمزيد من الإطلاع على علاقة البابا أليساندرو السادس مع الملكين الكاثوليكيين ومدى الدعم الذي منحه لهما، انظر:

Miralles, Alvaro Fernandez de Cordova: Alejandro VI y Los Reyes Catolicos, Relaciones Politico- Eclesiasticas (1492- 1503) , Thesis ad Doctoratum in Theologia, Facultas Theologiae, Pontificia Univirsitas Sanctae Crucis, Romae, 2005, passim.

110. المرية: مدينة أندلسية ساحلية تقع جنوب شرق بلاد الأندلس، بناها الخليفة عبدالرحمن الثالث (912 – 961م/ 300 – 350هـ) عام955م/ 344هـ، مرساها من أهم مراسي بلاد الأندلس، واشتهرت بالصناعات المعدنية، والنسيجية وخاصة الحريرية منها، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص537 – 538.

111. Davity, Op. cit. , p. 527.

112. Medina, Pedro de (1493- 1567) : Cronica de Los Doques de Medina Sidonia, Condes de Niebla, Marqueses de Cazaza en Africa, 1561, in CODOIN, Op. cit. , XXXIX,pp. 317- 318.

113. Zafra, Copia de Minuta de Fernando de Zafra a Los Reyes Catolicos, sobre la Impresa de Africa, 25 Abril 1494 (A. G. S, legajo num. 1315) , C. f. ,CODOIN, Op. cit. , LI, p. 89- 91.

114. Bernaldez, Op. cit. , II, p. 16.

115. الوزان: المصدر السابق، ج1، ص341.

116. شذونة: تقع جنوب الأندلس، على مقربة من ساحل الأطلسي، وبالقرب منها جبل يدعى الواسط، وتشتهر بغنى مياهها بسمك التونة، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص339.

117. خوان ألونسو دي غوزمان: ولد في مدينة إشبيلية في شباط1464م، تبوأ العديد من المناصب في إسبانيا أهمها الكونت الأول لمدينة نبلة Niebla الإسبانية، والدوق الثالث لمدينة شذونة منذ عام1492م حتى وفاته عام1507م، انظر:
CODOIN, Op. cit. , XXXVI, P. 490.

118. Medina, Op. cit. , p. 318.

119. Padilla, Lorenzo de (1483- 1540) : Cronica de Felipe I llamado El Hermoso, Escrita Por Don Lorenzo de Padilla y Dirigida al Emperador Carlos V, CODOIN, Op. cit. , VIII, pp. 49- 50.

120. Medina, Op. Cit. , pp. 318- 319.

121. الكارافيل: سفينة نقل شراعية حربية سريعة، فرنسية الطراز، كانت في الأصل معدة لنقل الخيول، ثم تطورت لتصبح سفينة نقل عامة، انظر: ابن اشنهو، عبد الحميد بن أبي زيان: دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، (د. ط) ، (د. ن) ، الجزائر، 1972م، ص104.

122. Medina, Op. Cit. , pp. 318- 319.

123. Bernaldez, Op. cit. , II, p. 16.

124. Zurita, Historia, I, P. 136.
125. Padilla, Op. cit. , p. 50.
126. Medina, Op. Cit. , p. 319.
127. Zurita, Historia, Op. cit. , I, P. 136.
128. Padilla, Op. cit. , p. 51.
129. غساسة: بلدة على بعد عشرين ميلاً إلى الغرب من مدينة مليلة، وكانت أسوارها وقلعتها وتحصيناتها تتمتع بقدر كبير من القوة والمنعة، بالإضافة إلى صلاحية مينائها لرسو السفن، حيث كانت تقصده السفن التجارية من أجل المتاجرة مع أهل فاس، انظر: الوزان، المصدر السابق، ج1، ص342.
130. Medina, Op. Cit. , p. 319.
131. Davity, Op. cit. , p. 527.
132. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص341.
133. Medina, Op. Cit. , p. 320.
134. Padilla, Op. cit. , p. 51.
135. Davity, Op. cit. , p. 527.
136. Medina, Op. Cit. , p. 321.
137. Fernando II y Isabel I, Reyes: Carta Original de Los Reyes Catolicos al Doque de Medina sidonia, 18 Octubre 1497, Archivo del Excmo, Senor Duque de Medina sidonia, C. f. , CODOIN, Op. cit. , XXXVI, pp. 468- 469.
138. Asiento Hecho Con la Real Hacienda Por D. Juan Alonso de Guzman, Duque de Medina Sidonia, Sobre la Tenencia y Guarda de la Ciudad de Melilla, en Africa, Alcala de Henares 13 Abril 1498, Archivo del Excmo- Senor Duque de Medina sidonia,C. f. ,CODOIN,Op. cit. ,XXXVI,pp. 469- 483.
139. سرقسطة: عاصمة الثغر الأعلى الأندلسي، وتسمى المدينة البيضاء، وتقع على نهر إيبرو شمال شرق البلاد، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص317.
140. Fernando II, Rey, Carta Original del Rey Catolico al Duque de Medina Sidonia, Disposiciones Para que no Falten Viveres en Melilla, Zaragoza 6 Setiembre 1498, Archivo del Excmo, Senor Duque de Medina Sidonia, C. f. , CODOIN, Op. cit. , XXXVI. , pp. 483- 484.
141. Padilla, Op. cit. , p. 51.
142. Medina, Op. Cit. , p. 321.
143. Zurita, Historia, I, p. 136.

144. للاطلاع على تفاصيل هذه الثورات، انظر: Baudier, Op. cit. , pp. 22- 27.

145. طليطلة: عاصمة الثغر الأوسط الأندلسي، تقع على نهر التاج، وإلى الشمال منها تقع جبال الشارات، وكانت قبل الفتح الإسلامي عاصمة دولة القوط، وتبعد عن مدينة قرطبة تسع مراحل، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص394.

146. Padilla, Op. cit. , pp. 55- 58.

147. مالقة: مدينة ساحلية، تقع أقصى جنوب غرب بلاد الأندلس، وتبعد عن أرشذونة ما يقرب من ثمانية وعشرين ميلاً، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص25.

148. Medina, Op. Cit. , p. 322

149. Bernaldez, Op. cit. , II, p. 120.

150. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص342.

151. Fernando II, Isabel I, Reyes, Conquista de Cazaza por el doque de Medina sidonia, Medina del Campo 4 Octubre 1504, Archivo del Excmo, Senor Duque de Medina Sidonia, C. f. , CODOIN, Op. cit. , XXXVI, pp. 489- 492.

152. Bernaldez, Op. cit. , II, p. 120.

153. Zurita, Historia, II, P. 53.

154. Bernaldez, Op. cit. ,II, p. 117.

المصادر والمراجع:

أولاً- المصادر الأجنبية:

أ- المصادر:

1. *Baudier, Michel (1589- 1645) : Histoire de l'Administration du Cardinal Ximenes Grand Ministre d'Estat en Espagne, S. Cramoisy, Paris, 1635.*
2. *Bernaldez, Andres (1450- 1513) : Historia de Los Reys Catolicos, 2vols. , Liberia de D. Jose M. Zamora, Granada, 1856.*
3. *Davila, Gil Gonzalez (1578- 1658) : Teatro Eclesiastico de las Iglesias Metropolitanes, y Catedrales de los Reynos de las Dos Castillas, P. de Horna y Villanueva, Madrid, 1547.*
4. *Davity, Pierre (1573- 1635) : Description Generale de l'Afrique, 1st. ed. , C. Sonnius, Paris, 1637.*
5. *Manesson- Mallet, A. (1630- 1706) : Description de l'Univers, 5vols. D. Thierry, Paris, 1683.*
6. *Marmol Carvajal, Luis del (1520- 1600) : L'Afrique, 3vols. , N. Perrot d'Ablancourt, T. Tolly, Paris, 1667.*
7. *Medina, Pedro de (1493- 1567) : Cronica de Los Doques de Medina Sidonia, Condes de Niebla, Marqueses de Cazaza en Africa, 1561, in CODOIN, XXXIX, 1861.*
8. *Nicolay, Nicolas de (1517- 1583) : Les navigations, peregrinations et voyages faicts en la Turquie, G. Silvius, Anvers, 1576.*
9. *Padilla, Lorenzo de (1483- 1540) : Cronica de Felipe I llamado El Hermoso, Escrita Por Don Lorenzo de Padilla y Dirigida al Emperador Carlos V, in CODOIN, VIII, 1846.*
10. *Real Academia de la Historia: Coleccion de Documentos Ineditos Para la Historia de Espana (CODOIN) 112 vols. , Imprenta de la Viuda de Calero, Rafael Marco y Vinas, Miguel Ginesta, Madrid, 1842- 1895.*
11. *Zurita, Jeronimo (1512- 1580) :*

- *Anales de la Corona de Aragon, ed. de A. C. Lopez, Zaragoza, 1967- 1977.*
- *Historia del Rey Don Fernando El Catolico, de Las Empresas, y Ligas de Italia, 2 vols. ,*

12. *Domingo de Portonariis, y Ursino Impresor de la Sacra, Real, y Catolica Majestad, y del Reino de Aragon, Zaragoza, 1580.*

بد المراجع:

1. *Acero, Beatriz Alonso: Oran y Mazalquivir en la Politica Norteafricana de Espana 1589- 1639, Tesis Doctoral, Departamento de la Historia Moderna, Facultad de Geografia e Historia, Universidad Complutense de Madrid, 1997.*
2. *Barges, l. ,: Complement de l'Histoire des Beni- Zeiyan, E. Leroux, Paris, 1887.*
3. *Currey, E. ,: Sea- Wolves of the Mediterranean, The Grand Period of the Moslem Corsairs, J. Hurrey, London, 1910.*
4. *Davenport, F. and Paullin, C. ,: European Treaties Bearing on the History, Lawbook E. , New- Jersy, 2004.*
5. *Elliott, J. ,: Imperial Spain 1469- 1716, 1st. ed. , Penguin Group,London, 1963.*
6. *Fredet, P. ,: Modern History From the Coming Christ and the Change of the Roman Republic Into an Empire to the Year of Our Lord 1850, 10th. ed. , Charles Dolman Com, London, 1853.*
7. *Housley, N. ,: The Later Crusades 1274- 1580, From Lyons to Alcazar, 1st. ed. , Oxford Univesity Press, New York, 1992.*
8. *Kumrular, Ozlem: El Duelo Entre Carlos V y Soliman El Magnifico (1520- 1535) , Doctoral Thesis, Departamento de Historia Medieval, Moderna, Universidad de Salamanca, Espana, 2004.*
9. *Marceir, E. ,: Histoire l'Afrique Septentroinale (Berberie) , 3 vols. , Ernest Leroux Editeur, Paris, 1868.*
10. *Miralles, de Cordova: Alejandro VI y Los Reyes Catolicos, Relaciones Politico- Eclesiasticas (1492- 1503) ,Thesis Doctoratum in Theologia, Facultas Theologiae, Pontificia Univirsitas Sanctae Crucis, Romae, 2005.*
11. *Pike, R. ,: Panal Servitude in Early Modern Spain, University of Wisconsin Press, Madison, 1983*
12. *Sedillot, R. ,: Toutes les Monnaies du Monde, R. Sirey, Paris, 1955.*
13. *Strayer, J. and Munro, D. ,: The Middle Ages, 4th. ed. , Appleton- Century- Crofts, New York, 1959.*
14. *Tassy, L. ,: Histoire du Royaume d'Alger, H. du Sauzet, Amstredam, 1725.*

ثانياً- المصادر العربية:

أ- المصادر:

1. الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله (ت. 1163م/ 558هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزءان، ط1، عالم الكتب، الرياض، 1989م.
2. الإصطخري، أبو إسحاق، إبراهيم (ت. 950م/ 339هـ): مسالك الممالك، طبعة ليدن، دار صادر، بيروت، 1927م.
3. البغدادي، صفي الدين، عبدالمؤمن (ت. 1339م/ 739هـ): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، 3 أجزاء، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992م.
4. التنسي، محمد بن عبدالله (ت. 1494م/ 899هـ): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود بوعياد، د. ط، موفم للنشر، الجزائر، 2011م.
5. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت. 1229م/ 626هـ): معجم البلدان، 8 أجزاء، تقديم: محمد عبد المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م.
6. الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت. 1495م/ 900هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (د. ط) ، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.
7. ابن حوقل، أبو القاسم (ت. 990م/ 380هـ): صورة الأرض، (د. ط) ، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م.
8. ابن الخطيب، لسان الدين، محمد بن عبدالله (1374م/ 776هـ): الإحاطة في أخبار غرناطة، 4 أجزاء، تحقيق: محمد عبدالله عنان، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974.
9. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت. 1405م/ 808هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7 أجزاء، (د. ط) ، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1971م.
10. الزركشي، أبو عبد الله، محمد (كان حياً عام 1488م/ 894هـ): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
11. السراج، محمد بن محمد (ت. 1736م/ 1149هـ): الحلل السندسية في الأخبار التونسية، 3 أجزاء، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

12. ابن الشماع، أبو عبد الله، محمد (ألف كتابه عام 1457م/ 861هـ) : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر المعموري، (د. ط) ، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984م.

13. الفاسي، علي بن أبي زرع (ت. 1340م/ 741هـ) : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، (د. ط) ، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م.

14. أبو الفداء، عماد الدين، إسماعيل (ت. 1332م/ 732هـ) : تقويم البلدان، (د. ط) ، دار صادر، بيروت، 1840م.

15. القلقشندي، أبو العباس، أحمد (ت. 1418م/ 821هـ) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (د. ط) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، (د. ت).

16. ابن القنفذ، أبو العباس، أحمد (ت. 1407م/ 810هـ) : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد النيفر وعبدالمجيد التركي، (د. ط) ، الدار التونسية للنشر، تونس، (د. ت) .

17. المراكشي، عبدالواحد (ت. 1249م/ 647هـ) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه: محمد العريان ومحمد العلمي، (د. ط) ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1949م.

18. المقري، شهاب الدين، أحمد (ت. 1631م/ 1040هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، (د. ط) ، دار صادر، بيروت، 1988م.

19. الوزان، الحسن بن محمد (ت. 1550م/ 957هـ) : وصف إفريقيا، جزءان، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت– الرباط، 1983م.

ب- المراجع العربية والمعربة:

1. أحمد، مصطفى أبو ضيف: أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصري الموحدين وبني مرين 524 – 876هـ/ 1130 – 1472م، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982م.

2. ابن أشنهو: عبد الحميد: دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، (د. ط) ، (د. ن) ، الجزائر، 1972م.

3. الحريري، محمد عيسى: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الثانية، 1987م.

4. حسين، ممدوح ومصطفى، شاكر: الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري 668 – 792هـ/ 1270 – 1390م، ط1، دار عمار للنشر، عمان– الأردن، 1998م.

5. أبو دياك، صالح: دولة بني وطاس ودورها السياسي والحضاري في المغرب، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1982م.

6. الراقد، محمد: الغزو العثماني لمصر ومطلع العهد العثماني فيها، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1968م.

7. سعيدوني، ناصر الدين: مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.

8. سرهنك، إسماعيل: حقايق الأخبار عن دول البحار، جزءان، ط1، بولاق، القاهرة، 1312هـ.

9. شاكر، محمود: الكشوف الجغرافية، دوافعها– حقيقتها، ط2، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1988م.

10. ابن أبي الضياف، أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 4 أجزاء، تحقيق: لجنة وزارة الشؤون الثقافية، (د. ط) ، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999م.

11. العامري، محمد الهادي: تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الإزدهار والذبول، (د. ط) ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974م.

12. العروي، عبد الله: تاريخ المغرب، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977م.

13. العقاد، صلاح: المغرب العربي– الجزائر تونس المغرب الأقصى– دراسة في تاريخه الحديث وأحواله المعاصرة، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966م.

14. علي بك، محمود إدريس: طرابلس الغرب منذ الهجرة الهلالية إلى بداية العصر العثماني، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1998م.

15. عمران، محمود سعيد:

- الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي برين على مصر 1218 – 1221م/ 615 – 618هـ، ط2، دار المعارف، الإسكندرية، 1985م.

- تاريخ الحروب الصليبية 1095 – 1291م، (د. ط) ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م.

16. عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م.

17. الغنيمي، عبد الفتاح: موسوعة تاريخ المغرب العربي، 6 أجزاء، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م.

18. فارس، محمد خير: تاريخ الجزائر الحديث منذ الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط2، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1979م.

19. المزاري، أبو إسماعيل بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

20. المطوي، محمد العروسي: السلطنة الحفصية، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، (د. ط) ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

21. المنصوري، عثمان: التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2001م.

22. موسنيه، رولان: تاريخ الحضارات العام، القرنان السادس عشر والسابع عشر، إشراف: موريس كروزيه، ترجمة: يوسف داغر وفريد داغر، ط2، منشورات عويدات، بيروت– باريس، 1987م.

23. الناصري، أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 9 أجزاء، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، (د. ط) ، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م.

24. نجيه، جان بير، وآخرون: موسوعة تاريخ أوروبا العام، جزءان، ترجمة: وجيه البعيني، ط1، منشورات عويدات، بيروت– باريس، 1995م.

25. يحيى، جلال: تاريخ المغرب الكبير، (د. ط) ، 4 أجزاء، دار النهضة العربية، بيروت 1981م.